جانيت ديلي

سيّدة القصر الجنوني

مكتبة زهران

روايات رومانسية عالمية
عبير

سيدة القصر الجنوبي

انتقلت
جولي من بلدتها في داكوتا
الجنوبية حيث اكملت دراستها الجامعية
الى لويزيانا بحثاً عن جذورها في ما اعتقدت انها
منطقة احد اسلافها القدامى ولدى وصولها ومباشرتها
البحث عما جاءت من اجله، تفاجئها، في غابة كثيفة عينان
سرعان ما تقع اسيرتهما .. عينا رجل يدعى ستيف... يتحول
اسرها فيهما قصة حب هادرة بالثقة والغيرة، بالفرح والشقاء،
بالمتعة والعذاب. وفي اطار هذه القصة الجارحة، يبدو على
ستيف انه لا يبالي، اذ كانت هناك فتاة اخرى ظنت جولي
انها تشاركها الرجل الذي اعتبرته مرفأً لسفينة عذابها
وتقرر جولي العودة من رحلتها في موقف
مشحون بالانهيار. وتعود هاربة، لكن
الى أين ؟

مكتبة زهران
جمهورية مصر العربية
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت : ٥١٤٢٩٥٥ - موبايل : ٠١٢٣٧٨٦٤١٨

١ – حيث تدق الاجراس

استسلم الجواد الأبيض المرقط، على مضض، لضغط اللجام، وابتعد عن الأعشاب الخصبة، وأخذ رأسه يتمايل فى ايقاع وهو يخطو فى تثاقل على الطريق. لقد شهدت عيناه خمسة عشر ربيعا، ولم يعد يثب على قائمتيه الخلفيتين مرحا، أو يرفع مقدمه بحركة مفاجئة، كما اعتاد أن يفعل من قبل. ولم يعد كذلك يدفع اللجام الحديدى من بين أسنانه. لقد أصبح سمينا وكسولا خلال سنى عمره، وبدا كأنه يدخر طاقته ليطرد الذباب أويلتهم العشب الأخضر الطويل، لعله يكتسب القوة استعدادا لمواجهة فصل جديد من فصول الشتاء كما تعيشه ولاية داكوتا الجنوبية.

لم يكن الجواد بحاجة الى أن ينظر فى التقويم السنوى ليعرف أن شهر ايلول أوشك على الرحيل. كان يكفيه أن ينظر الى الأشجار بأوراقها الخضراء وقد ظهرت عليها بقع ذهبية وبرتقالية، أو يرفع عينيه الى السماء ليرى الطيور تستعد للبدء فى رحلة الهجرة مع العلامات الأولى لبرد الشتاء. وحقول القمح المجاورة للمرعى، المتموجة، نضج محصولها وباتت السنابل الذهبية تتدلى على سوقها النحيلة. كان الجو لايزال دافئا خلال النهار، ولكن الليالى لم تكن تخلو من الصقيع. وبدأ الجواد المرقط يتهيأ ليوطن جلده الخشن على احتمال الرياح البارردة الوافدة من الشمال الغربى. وجاءت وخزة من كعب الحذاء لتضرب جانبه. وصهل الجواد ليعبر عن استيائه قبل أن ينطلق ليجرى فى اهتزاز. كان الحمل على ظهره خفيفا واليدان اللتان تمسكان باللجام رقيقتين. وارتفعت يد لتلمس رقبة الجواد فى اطراء، وتبع ذلك جذب للجام. وعاود الجواد الآخذ فى الهرم، الجرى مسرورا. ثم ما لبث أن عاد الى مشيته المتثاقلة.

وتنهدت الفتاة التى على ظهر الحصان العارى بعمق وتركت اللجام يتدلى أمامها، بينما وضعت راحتها أسفل ظهرها وتدلت ساقاها على جانبى

الحصان، وجلست فى استرخاء على ظهره العريض، وأغمضت عينيها البنيتين الرقيقتين وقد شعرت بالدفء يسرى فى صدرها وساقيها. كان بصرها ينتقل فى سرعة فى ما حولها، مجرد رؤية دون أن ترى شيئا محددا. كان قوامها معتدلا وشعرها بنيا دافئا مثل عينيها وقد بدا كثيفا، فى قصة قصيرة تسمح لكثافته وتموجه الطبيعى بأن يشكل وجهها البيضاوى. وكانت ملامح هذا الوجه عادية بلا جمال صارخ، وأنما كانت تتمتع بصحة عامة تبعث الرضى.

* * *

كانت جولى انطوانيت سميث فى حداثتها تندب قلة حظها من الجمال الساحر، ولكن أباها كان يضمها بين ذراعيه فى نوع من العناق الذى اعتاده، ويعمد الى اغاظتها بصوته الضاحك قائلا:

« ان لك عينين جميلتين ترين بهما، ولك أنفا تشمين به، ولك شفتين سخيتين تشكلان فمك الذى يتكلم ويأكل بطاقم أسنانك الأبيض الناصع.»

ثم يرفعها الى أعلى فيما رأسها الى اسفل، وينعم النظر فى وجهها ويقول:

« ووفقا لأخر عملية حسابية قمت بها، فان لك أربعمائة وسبعا وثلاثين نمشة ينبغى أن تشكرى الله عليها لأنه نثر هذه الذرات الذهبية فى وجهك.»

ولكنها كانت تعبس وتقطب بسبب النمش الذى كان هناك وكأنه ليس هناك. واذ ذاك كان أبوها يداعب ركن فمها ويجعلها تبتسم رغما عنها ثم يختتم حديثه بلذة النصر قائلا:

« وأعطاك كذلك بعض الخطوط الغائرة الجميلة على ذقنك.» .

وكانت جولى تفهم أن أباها يتحيز اليها، ولكنها كانت تحس بارتياح كبير بعد تلك المداعبات. وعندما كبرت أدركت أنه كان يحاول أن يجعلها تشعر بالرضى، وقد كفت منذ زمان طويل عن أن تلعن حظها من ذلك النمش وتلك الخطوط الغائرة فى ذقنها. كما تعلمت أن تقبل المداعبات البريئة التى تتعرض لها بسبب ذلك. ورغم أن جولى قلما كانت تحظى باهتمام من الجنس الآخر، فان الرجال الذين كانوا يألفون صحبتها كانوا يجدون فيها فتاة دائمة الابتسام تحسن الاصغاء والحديث، وكانت من النوع الذى يحن الى الجلوس الى أمه، بينما تحرص صديقاتها على ارتياد الحفلات.

كانت جولي قد عادت الى بيتها بعدما أمضت أكثر من ثلاث سنوات درست خلالها البرنامج المقرر لأربع سنوات كاملة وأتمت تعليمها وحصلت على الدرجة الجامعية. ولكن ماذا بعد؟ كانت تحس بشيء من عدم الارتياح وكان القلق يجيش في نفسها. لقد عادت الى مسقط رأسها وبدا لها أن كل شيء قد تغير، بينما كان كل شيء على ما هو عليه: مسقط الرأس، ثلاثمائة وستون فدانا من الأراضي الزراعية على مسافة ستين ميلا من يانكتون في ولاية داكوتا الجنوبية حيث ظل أبواها طوال واحد وعشرن عاما من حياتهما يفلحان تلك الأرض. وكانت حياة طيبة لكنها لم تكن تخلو من المصاعب أحيانا بسبب الطقس وأثره على المحاصيل. ولكن.. تلك كانت حياة أبويها وليست حياتها هي.

* * *

وتوقف الجواد المرقط ليأكل بصوت طاحن من كتلة كثيفة من العشب ولكن جولي استحثته على السير، وقالت:

« لو أنك أكلت أكثر من ذلك ياكشاف لانفجرت معدتك.»

واستجاب الحصان مطيعا، وواصل السير متثاقلا. وتنهدت جولي وخاطبته:

« يالك من عجوز مسكين. لقد تغيرت أنت أيضا مثلي. صدق من قال: انك لن تستطيع العودة ثانية.» .

* * *

كان والدا جولي قد عاشا بمفردهما خلال السنوات الثلاث الأخيرة، ولم يعودا قادرين على رعاية أمور أبنتهما. فهما لايستطيعان أن يعترفا بأنها قد اصبحت الآن راشدة. لقد تزوجت أختها التي تكبرها بعام واحد ورزقت طفلين وعاشت حياة تختلف تماما عن حياة جولي. وأدركت هذه أن كل شيء قد تغير، حتى جون تالبوت ذاته. رأت جولي سيارة جون البك أب تنتظر عند منعطف على جانب الطريق الزراعي، وكان بقامته الطويلة التي لفحتها الشمس يقف على حافة حقل. القمح وعضلات ذراعيه تلمع مع أشعة

الضحى، ورفع أحد ذراعيه محييا بينما ظهرت بين أسنانه واحدة من سوق القمح، ووجدته يخطو خطى واسعة الى حافة الحقل، واقتربت منه على ظهر حصانها وامتدت يداه الغليظتان تحيطان بها وحملها الى لأرض وخفض رأسه تجاهها يلتمس عناقها. واستجابت جولى على فطرتها وقد أحست به يقترب منها، وارتاحت الى بريق العاطفة البادى فى عينيه السمراوين الذهبيتين والى ابتسامته وهو يقول:

« هيه.. لقد مضى وقت طويل منذ خرجت آخر مرة الى المزرعة.» .

ووجدت جولى نفسها تلتصق بكتفه. وامتدت ذراعه القوية تشدها اليه وجعلت ذراعها تلتف حول وسطه بينما أخذ الحصان يرعى وقد أغضى عنهما وهما يسيران فى بطء تجاه حقل القطن. واندمجت جولى فى الحديث الذى يدور عادة بين سكان المنطقة: «ان أبي يقول ان موعد حصاد قمحك قد حان»

ونزع جون واحدة من سوق القمح قبل أن يجلس تحت شجرة ظليلة وأخرج الحبات الذهبية من السنبلة وألقى باثنتين فى فمه، وقال: «مازالت فيه نسبة كبيرة من الرطوبة. وبعد يومين مشمسين يكون جاهزا للحصاد.» .

ودفع قبعته الى الوراء واضاف:« سوف يكون فصل حصاد طيبا.» .

وعلقت جولى قائلة:« ان أبي يشكو الآما فى كتفه ولابد أن المطر سيسقط قبل مساء الغد.» .

وابتسم جون وضمها بين ذراعيه وقال:

«بلغيه نيابة عني أن ينتظر يومين أخرين.» .

وهم بعناقها فأدارت رأسها. ولمست شفتاه وجنتيها لكنها افلتت منه وسألها فى هدوء: « ماذا بك ياجو؟» .

تنهدت وأجابت: « لاأدرى.» وأدارت بصرها الى الوراء لتلقى عليه نظرة استطاع معها أن يلمح أثار الحزن. وواصل الحديث قائلا: « لقد مضى أسبوع منذ قدومك. ألم تتلق أى رد على طلبات العمل التى تقدمت بها؟»

« لم أتقدم بأى طلب للعمل.» .

وارتفع حاجباه بعض الشيء. وتنشقت أنفاسها وهى تحول عينيها عن وجهه. ولكنه كان يعرف الكثير عما تفكر فيه وقالت: « لقد حصلت على الدبلوم بالفعل، ولكننى لاأعرف ماذا أفعل بها؟» .

عندئذ قال جون:

« يمكن متخرجات أقسام الاقتصاد المنزلى أن يصبحن زوجات ممتازات!»
ورغم أن تعليقه كان يعنى لها شيئا من المضايقة فقد عرفت أن العبارة كانت نوعا من جس النبض لعله يعرف رأيها. ولكنها لم تكن تستطيع أن تخبره صراحة أنها لاتحبه، أو على الأقل لم تكن تحبه بالطريقة التى تريد أن تحب بها الرجل الذى سيصبح زوجا لها. كان جون تالبوت حلم أية فتاة. فهو لم يكن جميل الطلعة فحسب بل كان صلبا يمكن الاعتماد عليه. وكانت أى نظرة منها الى ملامحه الملوحة بأشعة الشمس تجعلها تعجب من نفسها- كيف لاتحرص على أن تفوز بالرجل الذى ظل ينتظرها خمس سنوات. لم تكن تنكر أن جون له سحر يجتذبها اليه، ومع ذلك لم تدق الأجراس ولم تسرع ضربات قلبها عندما أمسك بيديها وكانت ترى أنه ليس عدلا أن تتزوج منه وهى تعرف حقيقة شعورها نحوه.
وجاء صوته الخشن الهادىء يسألها: « هل فكرت مرة لماذا لم أقدم اليك خاتم الخطوبة فيما كنت طالبة فى الكلية؟» .
وأومأت برأسها وهى تشعر بالذنب الى درجة لم تستطع معها أن تجيب صراحة. وتابع قوله:« كنت أعرف أنك تستلطفيننى بل ربما أحببتنى، ولكنك لم تقعى فى حبى حقيقة.» .
وظهرت على وجه جولى علامات الألم، واضطر جون أن يمد يده ليرفع ذقنها الذى كاد يغوص فى صدرها وقال:
« كنت في الثامنة عشرة من عمرك وكنت فى الرابعة والعشرين وقررت أن من الحكمة أن أنتظرك حتى تكملى دراستك.» .
وهمست جولى:« أحس كما لو كنت أدنى مخلوق على الأرض ياجون. أعترف أننى لم أقع فى حبك. أحس باهتمام نحوك لم اشعر به تجاه شخص آخر من قبل. أحبك ولكن فى معنى آخر.» .
وأحست بأصابعه تنشب فى كتفيها تنفيسا عن الألم العميق الذى أبى وجهه أن يبوح به، وابتعد عنها وظل يستند الى جذع الشجرة. وقال:
« الطريقة التى تحبيننى بها لن تشفى غليل أى منا لزمن طويل.» .
كانت ابتسامته تعكس الأسى، وبدت المرارة واضحة على وجهه وأكمل:
« وماذا تفعلين؟ هل تقيمين هنا؟» .
وهزت رأسها هزة لم يكد يلحظها، وأجابت:

« لأعتقد ذلك. لقد عدت الى المزرعة لأجمع شتات أفكارى بعد ثلاث سنوات عانيت فيها الانتظام فى الدراسة والواجبات المنزلية وغيرها. وأحس كأن شخصا ألقى بى على الشاطىء. لقد ظننت أن العودة تعطينى فرصة للبدء من جديد ولكننى الآن أكثر اضطرابا. ولأريد أن أقبل أى عرض للعمل ولكننى لأريد كذلك أن أرهق أبوى بالانفاق على. لقد كلفتهما الكثير.»

« كل شىء سيكون خيرا باذن الله.»

« آمل ذلك..لكلينا ياجون!»

وكان يحدق فى الارض المزروعة دون أن يبصر شيئا محددا، ثم تحول الى جولى وقال:« هل أطمع فى أن تدوم صداقتنا؟» وامتدت يده تعبث بشعرها وتذكرت سنوات صباها، وقالت: « بالطبع.»

وابتسم وهو ينهض برشاقة على قدميه، ونهضت هى الأخرى ووقفت صامتة الى جانبه. واستأنف الحديث: « دعى عنك هذه الكآبة ياحبيبتى. لاتظنى أننى فوجئت. أعتقد أننى كنت سأدهش حقا لو انك تحبيننى بالفعل.»

وتعانق الاثنان فيما كانت عيناها مخضلتين بالدموع. وقالت
:« الخالة بريجيت ستقطع رأسى لأننى أفرط فيك.»

وضحك جون وقال:« لاتقولى أن خالتك المشبوبة العاطفة هنا!؟»

« انها كالعذراء داخل الشرنقة. كيف تجرؤ أن تسميها مشبوبة العاطفة؟ ان أمى تقول انها لم تذق طعم القبلة فى حياتها.»

« انها فى رأيى المرأة التى تعرف معنى الحب.»

كانت تلك أجابة حيرت جولى. وتركها جون لحيرتها وقال:

« ان العم راى يبحث عنى الأن ولابد أن أنطلق.»

لم تكن جولى قد أدركت أنه اعتزم الرحيل حتى ابتعد عنها بضع خطوات فصاحت تناديه:« جون..اننى..اننى أسفة.»

كان جون قد أحس بكتفيه يتصلبان بعض الشىء قبل أن يلتفت اليها. ولوح بيديه، ومع ذلك سرعان ما ابتعد عنها تجاه سيارته. ووقفت جولى ترقبه قبل أن تعود الى جوادها السمين الذى كان لايزال يملأ بطنه بالكلأ.

* * *

انغلق الباب الداخلي في المنزل المكون من طابقين وقدأحدث بعض الضجيج بينما كانت جولي تجتازه الى الداخل . ولم تكن تحس بأنها أحسن أو أسوأ حالا مما كانت في الصباح . كانت قد اتخذت قرارا حاسما فيما يخص المكان الذي يمكن أن تعمل فيه . اذ قررت ألا يكون ذلك بأي حال في مكان قريب من مسقط رأسها حتى لا يتيح ذلك فرصة أمام جون لمعاودة الضغط عليها للزواج منه . وجاء صوت مهيب من شرفة في الداخل :

« مرحبا .. من دخل ! »

« أنا يا خاله بريجيت »

قالت جولي ذلك وهي تدير رأسها قرب الباب ولوحت بيدها قائلة :

« أين أمي ؟ »

« إنها في المدينة تشتري بعض البقالة »

وهمت جولي بالتوجه الى حجرتها ولكن الخالة أشارت اليها :

« تعالي واجلسي معي »

وكان شعر الخالة بريجيت بلونه الرمادي قد التف في كعكة صارمة وكانت جولي تنظر الى خالتها التي تكبر أمها باثنى عشر عاما على انها امرأة عملية وحازمة . ولكن تعليق جون جعل جولي تتعجب كثيرا وتفكر في مدى صدق الصورة التي تراها بها . فالملامح التي تبدو عليها الآن ربما كانت في يوم من الايام جذابة حقا . وسألتها الخالة :

« ماذا فعلت منذ عودتك من المدرسة ؟ »

كانت خالتها قد امضت الثلاثين عاما الاخيرة في مهنة التعليم وكانت أسئلتها تصل الى جولي وكأنها أوامر . واستغرقت الفتاة في شيء من التفكير ثم أجابت :

« كنت أستريح من عناء الامتحانات النهائية كما كنت احاول أن أرسم صورة لما عساي أن أفعله في المستقبل »

« انك تتكلمين وكأنك تتحدثين عن مشكلة خطيرة »

كانت بريجيت كارسون قد لاحظت بالفعل التعبير المضطرب على وجه جولي ومضت تقول : « كأنه أمر خطير بالفعل »

« نعم »

قالت جولي ذلك وقد حاولت أن تدير وجهها حتى لا تواجه نظرة خالتها

المتفحصة وواصلت الخالة قائلة : « أين كنت هذا الصباح ؟ »

« كنت في الخلاء مع جون »

« انني على ثقة من أن لديه إجابة عن المأزق الذي تعيشينه »

« نعم .. كان لديه اقتراح »

وبدا صوتها رقيقا وحازما في آن واحد وأكملت :

« انني لم أقع في حبه حتى الآن يا خالة بريجيت »

« أشعر بالأسف لك ولجون في الوقت ذاته . كان من الممكن أن يكون زوجا وأبا صادقا في حبه لك . هل أنت متأكدة من شعورك نحوه ؟ »

« ما هو الحب ؟ »

طرحت جولي السؤال وهي تستدير من النافذة نحو خالتها وأكملت :

« إن عمري احدى وعشرون سنة ولا أعرف حتى الآن ما هو الحب »

« ان ذلك يا عزيزتي سؤال أبدي سوف يتردد طالما كان أحياء على الارض »

وارتفع حاجبا خالتها القاتمان وقالت :

« لقد ادركت انك لم تقعي في حب جون بعد ، والا لما طرحت هذا السؤال »

« هكذا تتخلصين من الاجابة على السؤال .. أرجوك ألا تكرري لي الكلام الذي تقوله أمي : الحب يعني أشياء كثيرة بالنسبة الى الكثيرين »

« أعتقد أن الحب الذي تتحدثين عنه ، حيث تدق الاجراس شيء نادر لأنه حب بلا أنانية . وقليل من الناس من يستطيع أن يعطي من مشاعره عطاء كاملا حرا . وهناك من يشقون كثيرا في سبيل العثور على ذلك الحب لكنهم لا يجدونه ، ومع ذلك فهناك قلة من المحظوظين يعثرون عليه حقا »

« وهل عثرت عليه خالتي بريجيت ؟ »

« نعم .. ذات مرة . ولكن حادثة السيارة أخذته مني »

وعلت وجهها ابتسامة حزينة و أكملت :

« لقد حطمني تماما ذلك الحب . ان الذي تتحدثين عنه حب نفيس »

« هل تعتقدين إنني سأعثر عليه ؟ »

« ليس بتلك الملامح الكئيبة التي تعلو وجهك »

كانت بريجيت قد اختارت الكلمات التي ساعدت جولي على أن تخرج من شعورها بالكآبة .

« حسنا إنني لا أتطلع الى الرحيل ، كما لا أريد الاقامة هنا ولابد من أن أشغل نفسي بشيء »

« الواقع أن من الصعب على الانسان أحيانا أن يتخذ القرار عندما يكون وسط من يعرفهم لأنه يلح في طلب أراءهم رغم أنه يعرف أنها لا تفيد . وفي رأيي أن ترحلي لمدة أسبوع أو أسبوعين . أرحلي وحدك الى أي مكان واسترخي واستمتعي بوقتك وسوف تدهشين كيف تصبح الأمور بعد ذلك في غاية الصفاء »

وهزت جولي كتفيها وقالت : « لاأعرف مكانا معينا أذهب اليه »

« لكن هناك بالتأكيد مكانا تريدين أن تذهبي اليه »

ولاح في عيني جولي شعاع ضوء للحظة . فقد تذكرت رغبة ظلت حبيسة نفسها منذ طفولتها ،وقالت :

« ربما ولكن مكان بعيد وليس في وسعي أن أحلم برغبات متطرفة »

« وماذا يضيرك لو تحدثت بما في نفسك مبينة الى أين تذهبين لو توفرت لك النقود ؟ »

« سأقول شيئا قد يبدو غريبا على مسمعك ، فقد ظللت أفكر في الذهاب الى لويزيانا ، حيث كانت جدتي الكبيرة لأمي أو غيرها من أجدادي يعيشون . انني لم أكف عن التفكير فيما اذا كانت كاميرون هول مازالت قائمة هناك ؟ »

« انه لشيء غريب حقا حين نعرف كيف نجح هذا السلف الوحيد لنا في أن يصبح جزءا من حياتنا الى هذا الحد »

وتفحصت العينان القاتمتان جولي بعناية وواصلت تقول :

« لقد سميت بأسمها : جولي أنطوانيت . كانت البنات يحملن أسماء فرنسية عبر السنين »

« لا يعنيني ذلك لأن حظ جولي من الجمال والفتنة أكبر بكثير مما كانت عليه جين سمث »

وقهقهت جولي مليء فمها :

« لابد أن هناك وسيلة تستطيعين بها أن تقومي بهذه الرحلة »

كان عقل خالتها يعمل بشكل يكاد يكون ملحوظا بينما راحت جولي ترقبها وهي تزيح الكتاب عن حجرها وتنهض لتقف :

« لا أعرف كيف ؟ »

« إن لدي مبلغا من المال لابأس به ادخرته ولم أفكر قط لماذا . لم أحضر لك هدية التخرج من الجامعة لأنني أردت أن تختاريها بنفسك . وها أنت قد اخترتيها بالفعل : رحلة الى أرض الرافد . الى لويزيانا »

وابتسمت خالتها ولهثت جولي وقالت :

« انه مبلغ كبير لا أستطيع أن أتركك تفعلين ذلك »

« وكيف تستطيعين أن تمنعيني ؟ »

* * *

٢ ـ ذو الصوت الغريب

كان كل اعتراض تثيره جولي يجد ردا منطقيا مقنعا حتى وجدت نفسها تجلس الى المكتب حيث بدأت خالتها تخطط معها للرحلة . كان من الضروري أن تذهب سيارة جولي الفولكس واجن الصغيرة للفحص الدقيق قبل الرحلة ، بالإضافة الى استكمال بعض الملابس . وكان من الضروري أن تجري بعض الاستفسارات حول مكان المبيت في أقرب مدينة الى المستعمرة . (كاميرون هول) بالإضافة الى تقدير المبالغ المطلوبة للوقود والطعام والمبيت . وعندما رجعت أمها من المدينة كان قد تم وضع خطة الرحلة كاملة ، وقامت الخالة بريجيت بعرضها عليها كأمر قد تم الإتفاق عليه .

وعندما رأت جولي كافة تكاليف الرحلة صدرت عنها أنه ألم وقالت :

« إن أقل ما أقبله هو أن تأتي معي يا خالتي بريجيت لتستمتعي بعض الشيء ، خاصة وأنت التي ستدفعين كل النفقات »

وردت خالتها في حزم وسخرية :

« ليس هذا هدف الرحلة . فالفكرة منها أن تخرجي وحدك وتستمتعي و لن يتحقق ذلك اذا أصررت على أن تصحبي عانسا طوال الرحلة »

ولم تنجح أي محاولة في تغيير القرار الذي اتخذته الخالة . ووجدت جولي نفسها تستغرق في تنفيذ الخطة . ولم يمض أسبوع حتى كانت سيارتها قد أصبحت صالحة للرحلة ، ووصلت إفادة تؤكد وجود أماكن للمبيت وأما الحقائب فقد تم حزمها . وعندما قادت على الطريق العام سيارتها بلونها الذي يشبه لون التوت البري أحست بأنها أسيرة فيض من المشاعر .

كان هناك شيء واحد يمكن أن يعكر عليها صفو الرحلة ، وهو أنها قد لاتجد أثرا لكاميرون هول . فقد أوضح الرد الذي جاءها أن أماكن المبيت متوفرة ولكنه ذكر كذلك بأنه ليس لديهم معلومات عن مستعمرة تحمل اسم كاميرون هول . وأسرعت خالتها توضح أن كاميرون هول قد بيعت بعد الحرب الأهلية بوقت قصير بسبب الضرائب . وأثارت احتمالا بأن تكون قد

أطلق عليها بعد ذلك اسم اخر . وكانت اعادة تسمية المستعمرة أمرا شائعا في ذلك الوقت .

ورغم أن جولي كانت تريد أن تسرع في القيادة فقد استمتعت بوقتها وقسمت الرحلة الى مراحل أكثر من أربعة أيام بقليل . وكانت تقود على مهل في الطرق الفرعية لتستمتع بالطبيعة الجميلة ، وتجنبت الطرق الحديثة التي تتيح لها قيادة أسرع ، ومع ذلك شعرت بنبض في قلبها يدق أكثر من العادة عندما دخلت سيارتها الى حدود ولاية لويزيانا . وأحست كما لو كانت عائدة الى وطنها .

وكانت الساعة السادسة مساء وكانت جولي على مسافة تقل عن المائة ميل من مقصدها . ولولا رغبتها القوية في أن تستمتع برؤية ذلك القسم الآخير من الرحلة خلال ساعات النهار لأكملت السير ، ولكنها قادت السيارة على مضض نحو الطريق المؤدي الى أحد الفنادق الصغيرة بعدما قررت أن تستيقظ في وقت مبكر من اليوم التالي لتستأنف الرحلة ولتستمتع بمنظر الريف الجميل دون خشية منها لدى حلول الظلام . وفي الصباح اخترقت الغابات الوطنية حول الكسندريا وهبطت الطريق الى أوبيلوساس ولافاييت واستدارت بها الطريق الى سانت مارتنفيل في آخر مرحلة من الرحلة .

كانت هناك لافتة على الطريق وسط المدينة تدعوها الى زيارة شجرة بلوط أيفانجيلين التي خلدتها أشعار لونغفيلو . ولكن جولي كبحت جماح رغبتها وتغاضت عن الزيارة للمكان المثير . كان أمامها ثلاثة أسابيع للسياحة وكان عليها الآن أن تبحث عن مكان رخيص ومريح تقيم فيه .

ووقفت بسيارتها أمام أحد المطاعم وقررت أن تسأل أحد الأهالي لعله يدلها على مكان تستأجر فيه غرفة تخدم فيها نفسها وتوفر أجر الفندق ونفقاته : وبعدما طلبت فنجانا من القهوة سألت الفتاة اذا كانت تستطيع أن تجد لها مثل ذلك المكان ، وقدمت اليها الفتاة أحدى الصحف المحلية لكنها لم تجد بغيتها في القسم المخصص للإعلانات ، وعندما عادت الفتاة ومعها القهوة سألتها : « هل تعرفين وسيلة أخرى أبحث فيها ؟ »

وهزت الفتاة رأسها بالنفي ونظرت نحو الطاولة الكبيرة التي عليها المشروبات وتذكرت فجأة ، كان هناك ثلاثة رجال يجلسون قرب الطاولة وقالت الفتاة : « ربما أجد لك مكانا دعيني أستوضح »

واتجهت الفتاة نحو الرجال الثلاثة ربتت على كتف أحدهم وأخذت تحدثه وهي تشير الى جولي ، ولم تمض ثوان. كان الشاب قد حضر في صحبتها الى حيث تجلس وكانت عيناه الزرقاوان القاتمتان تتأملانها بينما .كانت الفتاة تقدمه اليها : « هذا غي لوبلان يا أنسة . أعتقد أنه يستطيع مساعدتك »

وانسحبت الفتاة بعدما شكرتها جولي وقال الشاب :

« انني سعيد بمقابلتك يا أنسة »

وأدركت جولي من خلال ابتسامته أنه يريد أن يستأثر باهتمامها وقالت وهي تبتسم : « سمث .. جولي سمث »

وشجعها على الحديث فقال : « أخبرتني دينسي التي قامت على خدمتك هنا أنك تبحثين عن مسكن تقيمين فيه »

«نعم أبحث عن مكان أستطيع أن أستفيد فيه من تسهيلات المطبخ ولن تطول اقامتي أكثر من أسابيع قليلة. هل تعرف مكانا تتوفر فيه هذه الشروط ؟»

وأجاب غي لوبلان في هدوء وضحك عندما رأى حاجبيها يرتفعان بشكل ظاهر وقال : « بيتي .. حيث يعيش أبواي أيضا »

وأضاف العبارة الأخيرة في لهجة مؤكدة ثم تابع يقول :

« كانا في الماضي يأويان الغرباء ولو أنهما لم يستقبلا أحدا منذ مدة طويلة»

« هل تظن أنه يمكن اقناعهما بالسماح لي بالإقامة ؟ »

« أعتقد ذلك ولكن دعيني أصطحبك الى هناك لتتحدثي بنفسك معهما . ولكن أحب أن أوضح أن في المكان حجرة نوم كبيرة ، أما وجبات الطعام فتتناولينها مع الأسرة »

وأخذ يعاون جولي لتزحزح كرسيها الى الخلف بعيدا عن المنضدة . وعندما تحسست حقيبتها لتدفع ثمن القهوة تدخل غي ووضع قطعة من النقود على المنضدة وأشار الى القائمة على الخدمة لتأخذ النقود ثمنا للقهوة التي شربتها جولي وقال : « إنه شرف لي »

وعندما تركا المطعم أحست جولي أن من واجبها أن تتفحص الرجل الذي يسير الى جوارها وقدرت أن غي لوبلان كان في بداية العشرينات من عمره كان نحيلا ورشيقا وشعره بني داكن أما ملامحه فكانت تتمشى مع نحولة جسمه . كان حاجباه قاتمين مقوسين وأنفه ارستقراطيا مستقيما وفمه وسيما. أما عيناه فكانتا تلمعان وتتلألأن وهما تعكسان الضوء . كان يلبس سروالا قاتم

اللون وقميصا قطنيا زاهيا ومظهره يعكس احساسا بالثقة والإرتياح . وأحست جولي أنه يدرك سحرا في نظراته يستغله كلما واتته الفرصة ، وعرفت أنها ينبغي أن تحترس لذلك مستقبلا اذا ماقدر لها أن تقيم معه في بيت واحد . كانت تعليماته محددة وهو يرشدها طوال الطريق الى البيت . وكانت قد قدرت أنه ربما طلب أن يقود السيارة بنفسه ، ولكنه علق بأنه يفضل النظر اليها على النظر الى الطريق الذي يسيران فيه . وقال في النهاية :

« البيت الأبيض على الناصية ، هناك مكان للسيارات خلف المبنى »

وأحست بغرابة مخرج الكلمات في صوته ، لم تكن لهجته كلهجة أهل الجنوب . واتبعت تعليماته وسارت بالسيارة الى وراء المبنى . لم تكد السيارة تقف حتى خرج غي واستدار ليفتح لها الباب وأحست بشيء من القصد الشخصي في مجاملته . ولم تدر كيف تتصرف ازاءه ، وحاولت أن تمد يدها الى مقبض الباب لكن يده كانت هناك قبلها وامتدت يده الأخرى لتقودها الى البيت . كانت الغرفة التي دخلتها حجرة لمعيشة الأسرة فيها مقاعد بيضاء وأرائك كثيرة ،وكانت هناك شجيرات تعكس الخضرة الطبيعية في المكان ، بعضها يتدلى من السقف العالي في أوان معلقة بينما كان بعضها الآخر من فصائل شجر المطاط ينمو في أحواض خشبية ضخمة وضعت على الأرض المغطاة برقائق الفلين فيما أستقر بعضها الآخير على المناضد كنوع من الزينة . ولم يكن غريبا أن تعكس الحجرة الجو الإستوائي بالنسبة الى الحرارة والرطوبة اللتين تميزان مناخ لويزيانا . وبادرها قائلا :

« اذا أنتظرت هنا فسأحضر والدي »

وأومأت بالموافقة ، وذهب ينقل الخبر ، ووقفت جولي تحدق في الحجرة وتبدي ارتياحها الى ما تراه . كان المبنى قديما ولكنه معتنى به ويصعب تقديره ، وسمعت طقطقة زوج من الأحذية آتيا من الردهة العريضة فتنبأت بعودة لوبلان ومعه آخر .

« ها هو ذا الضيف الذي أخبرتك عنه يا أمي »

وكانت هناك امرأة قصيرة لاتصل قامتها الى خمسة أقدام تقف الى جانب غي ، كانت ممتلئة الجسم على نحو جميل وتبدو عليها الأمومة بشكل واضح ، وكنت خصلات من الشعر الرمادي تبدو في الكعكة التي استقرت فوق رأسها . ومدت يدها الصغيرة الى جولي وقد أشرق وجهها بابتسامة :

« قال إبني أنك تريدين مكانا للإقامة يا آنسة سمث »

وأومأت جولي وقد شدها الود البادى على وجه المرأة الأكبر سنا .:

« نعم »

ووجهت السيدة لوبلان الكلام الى ابنها مداعبة :

« إنها أكثر سحرا مما ذكرت لي ، ألذلك تحرص على أن تقيم معنا ! ؟ »

ولم تستطع جولي أن تمنع إحساسا بالخجل غمر وجنتيها ، ولم تكن تريد أن تظن المرأة أنها تبدي أي نوع من الاهتمام نحو ابنها ، وانطلقت من الأم ضحكة وابتسمت بإعتذار ثم قالت :

« إنه مجرد مزاح ، إن إبني يعتقد أن له اغراء لاتقاومه النساء ، خذي حذرك من نزواته الغرامية وتجاهلي ثلثي كلامه المعسول »

وتنفست جولي الصعداء وقالت :

« لديك حجرة تؤجرينها ؟ »

وترددت ، فقد تذكرت أنها لم تسأل عن الإيجار ، وأحست بالحرج فقد كانت تعامل كضيف ومع ذلك الرقم معقولا في حدود طاقتها ، لقد وجدت مكانا للإقامة في مكان طيب ومع أسرة ودودة .

وتدخل غي متسائلا :

« قولي لي يا آنسة سمث ، لماذا أخذت سانت مارتنفيل مكانا تمضين فيه أجازتك ؟ لماذا لم تختاري نيوأورليانز وهي أكثر تألقا ؟

وأنبت السيدة لوبلان ابنها بقولها : « غي ! إن لدينا الكثير يعجب الزوار ، فهناك متحف المنزل الأكادي وسوق الحرفيين ومتحف التراث الاكادي في لوروفيل ، والمناظر الفخمة في نيوأيبريا ، ثم ما رأيك في جزيرة آفري ؟ ومدينة الطيور فيها والحدائق البرية ؟ »

ووجهت الكلام الى جولي : « لاتصغي اليه ، هنالك الكثير الذي سيعجبك . واذا أردت أن تزوري نيوأورليانز فهي رحلة قصيرة من هنا »

وأظهرت جولي موافقتها وترددت في التصريح عن غرضها الاساسي ثم قالت : « هناك سبب آخر جعلني أحضر الى هنا . فأحد أسلافي عاش في المستعمرة هنا وسميت بالفعل بإسمه جولي أنطوانيت سميث وهي كاميرون هول ، وربما سمعتم بها ؟ »

وحبست أنفاسها بينما صمت الاثنان برهة قبل أن يحييا ، هز غي كتفيه ثم

هز رأسه بالنفي وابتسم ابتسامة طفيفة ولكن أمه لم تستسلم بالسرعة ذاتها وسألتها جولي : « هل تعرفين أين موقعها من هنا ؟ كل ما أعرفه أنها تبعد عشرة أو خمسة عشر ميلا من سانت مارتنفيل »

وعلقت المرأة في صوت ينم عن الحزن :

« ليس هذا كثيرا . ولكن الزمن لم يكن رحيما مع الكثيرين من المنازل القديمة ، حتى إن ما لم يأت عليه النمل الأبيض أو النار أو القدم ، سقط أمام الأعاصير أو زحفت اليه يد التقدم »

وتنفست جولي في عمق وقالت :

« ألا تظنين أن هناك أملا في أن أجد تلك المستعمرة ؟ »

وكان مظهرها يوحي بأنها لن تستسلم دون أن تبذل المحاولة وقال غي :

« هناك بعض الاماكن القليلة المهجورة تنتشر في الريف »

وبدأت السيدة لوبلان تسأل من جديد : « ما الإسم مرة ثانية ؟ »

« كاميرون هول »

والتفتت الى ابنها تسأله : « هل تعتقد أنه قصر ايتيان القديم ؟ »

وهزت رأسها ثم قالت : « لكن لا ، كان هذا يحمل اسم المعبد لقد خلطت بين المستعمرة وبينه ، ومع ذلك فان غي مطلع على هذه المسائل . سوف نسأله لعله يعرف المكان الذي تبحثين عنه . والآن لتستريحي في بيتنا ، هيا يا غي أحضر حقائبها بينما أقوم بإرشادها الى حجرتها ، هل تأذنين بأن أناديك جولي ؟ »

وأعطت جولي مفاتيح السيارة الى غي وصممت على أن يناديها بسم جولي . وبدأت تتبع السيدة لوبلان عبر الردهة العريضة الى الدرج المؤدي الى الطابق العلوي . وهنا لاح لها السر وراء اللهجة الغريبة في أسلوب لوبلان في الحديث ، كانت اللهجة فرنسية واستفسرت جولي وهي تقبض بيدها على الدرابزين الخشبي : « هل عشت وأسرتك هنا منذ زمن طويل ؟ »

وأجابت السيدة لوبلان بسرعة : « في سانت مارتنفيل ، كل حياتنا أنا وزوجي اميل ، لقد اشترينا هذا المنزل بعدما تزوجنا بسنوات قليلة ، كان زوجي بارعا في مهاراته اليدوية ، ورغم أن المنزل كان في حالة سيئة فقد عمل على اصلاحه حتى صار على الحال التي ترينه فيها »

وأومأت جولي وقالت :

« إنه جميل للغاية . هل جاءت أسرتكم من فرنسا أصلا ؟ »

واستدارت السيدة لوبلان لتجيب عن السؤال بأسلوب مهذب في شيء من الثقة : « انك لا تعرفين تاريخ لويزيانا »

واحمر وجه جولي خجلا وهي تجيب :

« أعرف فقط ما يعرفه معظم الناس والقليل مما تحويه كتب التاريخ »

وأحست أنه قد فاتها القيام بشيء من الدراسة قبل أن تقوم بالرحلة الى ذلك المكان .

« إذن فأنت لم تسمعي قصة الشعب الاكادي ؟ »

وهزت جولي رأسها وقالت أنها لم تسمع تلك القصة . وواصلت السيدة لوبلان : « لكنك سمعت بقصة الكاجون ؟ »

وابتسمت السيدة لوبلان عندما أومأت جولي بالموافقة ، ومضت تقول :

« كان الاكاديون مهاجرين من فرنسا الى كندا حيث أقاموا في نوفا سكوتشيا . وعندما طالبت انكلترا بمقاطعة كندا كانت تخشى المستعمرة الفرنسية الكبيرة ، ولذلك خيرتهم بين العودة الى فرنسا والإقامة في المستعمرات الأمريكية . واختار أكثر من نصفهم المستعمرات حيث انتشروا فيها وتشتت شمل كثير من الأسر والمحبين وظل بعضهم يبحث لسنين قبل أن يجدوا أحبابهم . وبعد ذلك بنحو عشر سنوات هاجر أولئك الاكاديون الى لويزيانا . وكان أصحاب المستعمرات الكبيرة قد أستولوا على الأراضي الخصبة على ضفاف المسيسبي ، ولذلك استقر الاكاديون على طول الرافد ، وبعدما اشترت الولايات المتحدة مقاطعة لويزيانا من فرنسا وفد الامريكيون الى الأراضي الجديدة وقابلوا تلك الشعوب الاكادية . ولكنهم نطقوا اسم الاكاديين بطريقة محرفة كاجون . وهكذا ترين أن أكاديين وكاجون هما لفظة واحدة وترجع سلالة أسرتي الى أولئك المستعمرين الأكاديين ، فنحن أمريكيون من أصل فرنسي كندي »

وطقطقت السيدة لوبلان كلامها وقالت في اعتذار :

« لم أكن أقصد أن ألقي درسا في التاريخ » ، ولاأريد أن أصدع رأسك قبل أن تنعمي بشيء من الراحة في حجرتك ، تفضلي واتبعيني »

وابتسمت جولي وقالت :

« أؤكد لك أنني لم أتصدع على الاطلاق بل كانت في ذلك فرصة كبيرة

للتعلم . إن ما سمعته منك الآن يقنعني بأنني سأجد كثيرا من الاستمتاع »

« آمل ذلك »

وسارت المرأة أمامها عبر الردهة تتساوى في سعتها بالردهة السفلي وتابعت :

« يقع الحمام عند نهاية الردهة أما حجرتك فهي هنا »

وفتحت أحد الأبواب وخطت الى الخلف لتسمح لجولي بالدخول ، وقالت

« هل تعجبك ؟ »

« إنها فسيحة للغاية »

ووجدت جولي نفسها في حجرة فسيحة ذات سقف مرتفع ولها نافذتان ضخمتان تمتدان من الارض الى السقف وفي أحد الأركان كان مكتب صغير وكرسي بالإضافة الى مقعد وثير له مساند مريحة ومصباح أرضي وسرير لفرد واحد ، بالإضافة الى تسريحة من خشب الاسفندان ، وكانت هناك سجادات صغيرة ذات لون سماوي فاتح تنتشر على الأرض الخشبية المصقولة اللامعة تبرز ألوان الباستيل التي صنع منها فراش السرير ومساند المقعد . وكان الانطباع العام الذي يوحي به المكان هو السعة والهدوء والراحة .وأخذت السيدة لوبلان توضح :

« كانت هذه حجرة ابنتي الكبرى قبل الزواج . انها فسيحة ما يسمح لك بالحرية الشخصية دون أن تشعري بالضيق »

وشعرت جولي بارتياح أكبر عندما دلتها السيدة لوبلان على الباب المستتر الذي يؤدي الى المرحاض الخاص بها . وسألتها :

« كم طفلا رزقت ؟ »

« خمسة . واثنتان من بناتي قد تزوجتا . أما كلودين فتعيش معنا بعضا من السنة ، وابنتي الصغرى ميشيل تعمل مدرسة هنا . وأخيرا الولد المدلل غي »

وأطل غي برأسه من الباب ضاحكا :

« الصغير المدلل ، هل لي أن أدخل لا أريد أن أقطع الحديث اذا كنت تنوين أن تمتحنيني امام الآنسة جولي سمث »

وغمزت السيدة لوبلان بعينيها وهي تقول لجولي :

« ها هو ذا يعترف بأنه مدلل »

وأشارت يدها الجميلة الى ابنها كي يدخل وهي تقول :

« أدخل بالحقائب يا غي إنني أعرف أن هناك بعض المهام التي يجب أن

تنجزها حتى تجد ضيفتنا الجديدة فرصة لتستريح »

ووضع غي الحقائب بالقرب من الفراش وقد استقرت عيناه القاتمتان على جولي الى درجة جعلتها تعتقد أنه كان يريد أن يجعل قلبها يدق له .

وحاول أن يلفت النظر الى كونه سوف ينصرف ، وتنهد طويلا وهو يحييها ويعد بأنه يتطلع الى رؤيتها فيما بعد .

وعندما ترك الحجرة التفتت السيدة لوبلان نحوه وضحكت وهي تقول :

« إنني العاشق .. سأتركك الآن لتفرغي حقائبك وستتناول وجبة باردة في الاولى بعد الظهر . وحجرة الطعام هي الثانية الى اليمين بعد السلم » .

٣ ـ شجرة الذكريات

تحدثت جولي في لهجة امتزج فيها السؤال والاستفسار فقالت :

« ألا تعمل في أي مكان يا غي ؟ »

ورد في سخرية وهو يدس يدها بحزم تحت ذراعه وهما يهبطان الممر الجانبي

« أتكون جريمة كبيرة اذا كنت لا أعمل ؟ »

« إنه يكون إهدارا »

« وهل يخيب أملك اذا لم تكن لي مهنة معينة ؟ »

« ولماذا يخيب أملي بسبب ذلك ؟ »

« لأنني أعرف ما ذكرته أنك سليلة أسرة مكافحة ، ولذلك فأي رجل يتكاسل يكون في رأيك سيء السمعة وأنا أريد ألا تظني بي سوءا . وأعترف أنني أعمل محاسبا رغم أن عملي لايزال محدودا »

كانت دهشة جولي تنعكس على وجهها ولم يكن بوسعها أن تخفيها ولم تكن تعتقد أن غي لوبلان برقته ودماثته يمكن أن يشغل وظيفة في المحاسبة ولو أخذ برأيها لأختارت له وظيفة في المجال العام .

« إن الشكوك التي ترتسم على وجهك تجرح كبريائي ، انني أعمل لنفسي وليس هناك من يسألني عن عملي سوى نفسي ، وأحصل على دخل وفير مقابل وقت قصير أخصصه للعمل . وهناك أوقات أجد فيها نفسي مثقلا بالعمل وأوقات أكثر لايكون لدي فيها إلا القليق مما يشغلني . وفي الحالة الأخيرة أجد الفرصة لاصطحاب الصغيرات الجميلات عبر المدينة لمشاهدة المعالم الهامة . أليس ذلك رائعا في نظرك ؟ »

وابتسمت جولي ابتسامة ذكية أبرزت خطين شديدي الغور في وجنتيها وهي تقول :

« أعتقد أنك تريد أن تظهر في مظهر الخبث مع أنك لست كذلك تماما »

« إن النساء يحببن الخبثاء الذين لهم سحر الثمرة المحرمة . بالإضافة الى أن

النساء يولدن ليقمن بالإصلاح ويجدن تلذذا في أن يصنعن مني رجلا شريفا . أما اذا حدت عن الصواب فلا حيلة لي في ذلك لأنها طبيعة في »

وعلقت جولي : « والأمان بالطبع في أن تكون حولك منهن الكثيرات »

وتعمد أن يسير في خطى أبطأ وقال : « أعترف لك أن ظهري قد انحنى من كثرتهن وتستطيعين أن تكوني منقذتي » .

وأطلقت جولي ضحكة نمت عن عدم التصديق وقالت : « أنا ؟ لماذا ؟ »

« لأنك تستطيعين أن تجعلي الرجل يتطلع الى التغيير »

قال ذلك وقد بدا في نظرته شيء يدل على الجدية رغم الابتسامة الواضحة

وابتسمت جولي وقالت : « بعد واحد وعشرين عاما واظبت فيها على النظر الى المرآة أعرف تماما أن نصيبي من الجمال لايمكن أن يثير اهتمام أي رجل ، فوفر على نفسك الإطراء لأنه لن يجد في نفسي مكانا يا غي »

وتحدث غي في إصرار : « إنني أقول الحقيقة . لو أنك كنت في قاعة مع أجمل نساء العالم سيظل وجهك يلح على ذاكرة أي رجل سوف يعاوده خياله الهادىء المثير . وأعترف أن في تعبيري بعض التناقض ولكن هذا هو السبيل الوحيد لوصف ذلك المزيج من النمش الباهت مع الخطوط التي تظهر في الوجه ومع العينين البنيتين الرقيقتين ، إنك تجعلين أي رجل يستغرق في التفكير عندما ينظر اليك »

وأومأت جولي برأسها قائلة :

« انك تتحدث عن فتاة تأخذها الى بيتك لتقدمها الى أمك »

كانت قد أحست بصدق كلماته ولكنها شأن كل النساء كانت تتمنى أن تكون من النوع الذي يخلب لب الرجال ويدير رأسه ليجعله يفكر في أي شيء دون أن يكون للزواج دخل في ذلك . وصحح لها غي في هدوء قائلا :

« بل أقول الفتاة التي يزهو بها كل الزهو وهو يصحبها الى أمه »

« أعتقد أنك تعاني عدم وجود منافس »

كان الحديث قد تركز حول المسائل الشخصية بطريقة لم تكن جولي تريدها ، وكان من الضروري تغيير الموضوع ، وضحكت جولي ثم تابعت :

« أين نحن الآن من شجرة البلوط ؟ »

« إنها عند الناصية المقبلة »

وسألها : « هل تعرفين قصيدة لونغ فيلو المسماه ايفانجيلين ؟ »

«أعرف مغذاها فقط ، وأذكر أن ايفانجيلين افترقت عن خطيبها غابريل وظلت تبحث حتى وجدته على فراش الموت في المستشفى »

« هل سمعت القصة التي وراء القصيدة ؟ »

وعندما نفت استمر غي يقول :

« كانت احدى الاسر الاكادية قد تبنت فتاة يتيمة تدعى اميلين لايس وقامت بتربيتها في منزل الاسرة في نوفاسكوتيا . وعندما بلغت الفتاة السادسة عشرة كانت ستتزوج لويس أرسينو من القرية ذاتها وذلك في الوقت الذي كان يقوم الانكليز بنقل الاسر الاكادية خارج كندا . وحاول لويس أن يقاوم ترحيله لكنه أصيب وأخرجه الانكليز . وهكذا افترق عن اميلين التي تم ترحيلها على سفينة أخرى فاستقر بها المقام ، وبالاسرة التي كانت تتبناها ، في ولاية ماريلاند .

ولم تكن تعرف مصير لويس وبعد بضع سنين سمعوا عن استقرار بعض الاكاديين في لويزيانا ، واصطحبت اميلين اسرتها الى هنا ، وعندما نزلت من القارب فوجئت بالرجل الذي عانت بسببه طوال تلك السنين تحت شجرة بلوط ضخمة ، ومع ذلك لم تتم سعادتها لأن لويس كان قد ارتبط بامرأة أخرى . وتمضي القصة لتقول أن اميلين ظلت تتحدث عنه حتى وفاتها كما لو كان قد مات أو أنتقل الى أرض بعيدة .وأبطأ خطواته ثم توقف وأضاف :

« ويقال أن هذه هي الشجرة البلوط التي وجدت اميلين خطيبها عندها ثم فقدته » .

وراحت جولي تحدق في شجرة البلوط الممتدة أمامها بضخامتها التي جعلت الحديقة تتضاءل الى جانبها . وكانت مياه نهر صغير هادىء تتلألأ على البعد . كان المنظر يعبر عن كآبة صامتة في وسط المدينة ، وكانت هذه هي شجرة بلوط ايفانجيلين .

قال غي بينما كانت جولي تحدق في الشجرة بحجمها الكبير وأغصانها الضخمة : « أعتقد أنه من السخرية أن يكون المبنى الذي يضم متحف المنزل الأكادي هو ذاته الذي عاش فيه لويس زرينو وزوجته الجديده ، ولدينا مبنى تذكاري لكل منهما »

وشقت جولي طريقها عبر العشب الأخضر الى المياه البادية لهما وهي تقول « والنهر الذي في الجانب الآخر من الشجرة ؟ أليس ذاته الذي عبر فيه

قارب اميلين »

« دعني أصحح ما قلته إن هذا الرافد بل هو على وجه التحديد رافد تيشه »

وأدارت جولي عينيها المعبرتين عن الحيرة نحو الرجل النحيل بجوارها وقالت

« يبدو لي وكأنه نهر صغير . كنت أعتقد دائما أن الرافد مستنقع أو على الأقل منطقة مستنقعات »

وأخذ غي يوضح في هدوء : « إن أحد الفرنسيين الأوائل اطلق عليه اسم مياه راكدة عندما رآه للمرة الاولى لأنه لايبدو فيه اثر للتيار . والحقيقة أن المياه تنساب فعلا لكنها قد تغير اتجاهها في وقت آخر لسبب غير واضح »

« إنه ينساب في استرخاء على الطريقة الفرنسية . وكلمة تيشه فرنسية ، ولكن ما معناها ؟ »

« ليس بالضبط . انها تحوير لكلمة هنديه تعني الحية خففها الفرنسيون لسهولة النطق »

وتنهدت جولي والتفتت الى غي قائلة : « أمامي الكثير لأتعلمه »

« حسنا »

والتفتت اليه في سرور ودهشة قائلة : « لماذا »

« اذا كان لديك الكثير لتعلميه فيمكننا أن نقنعك بالإقامة فترة أطول . وهذا سيسعدني كثيرا »

قال ذلك وهو يحاول أن يؤثر فيها بابتسامته وفاجأته بسؤالها :

«هل سبق لأي فتاة صارحتك بأنك تتمادى في الحديث أكثر من اللازم »

« فقط أولئك اللاتي لم يكن هدفا لإهتمامي »

وبدا وقد جانبه التوفيق في الإجابة هذه المرة .وقهقهت جولي قائلة :

« يا له من غرور ! »

وتوقفت احدى السيارات قرب حاجز المنتزة الصغير وراحت تطلق نفيرها حتى جذبت اهتمام كل من غي وجولي. وأخذت الفتاة ذات الشعر القاتم الجالسة الى عجلة القيادة تلوح لهما.

وقال غي: « والان، هل تصدقين مدى شعبيتي؟»

وكان كتفاه قد ارتفعا في زهو وقد استسلم ساخرا للأقدار، وصاحت الفتاة التى تقود السيارة: « هل تريدان أن أوصلكما الى البيت؟»

والتفت غي الى جولي قائلا: « انها مسافة طويلة هل تفضلين الركوب؟»

وعلقت جولى فى لهجة مداعبة: « لاأريد أن أتسبب فى كرمشة ثيابك، كما لاأريد أن أكون مثار حقد من جانب فتاتك.»

وأجاب بالقدر ذاته من الفكاهة: « أعتقد أننى أستطيع أن أتعامل مع امرأتين فى وقت واحد. ولقد نسيت أن أخبرك أننى كنت ماهرا للغاية فى الشعوذة.»

« حسنا. سوف نركب معها الى البيت. اننى أتوق الى رؤيتك تمارس غرامياتك.»

وضحكت، وقبلت أن تستند الى ذراعه وهو يسير بها الى السيارة. وبينما كان يساعدها على الصعود الى المقعد الأمامى علقت الفتاة قائلة:

« لقد أخذتما وقتا طويلا قبل أن تحسما رأيكم! ألم تدركا أنه لايوجد فى هذه المنطقة مكان للانتظار؟»

وأجاب غى« كنا نناقش ما اذا كنا نفضل العودة سيرا على الاقدام.»

وألقت جولى عليه نظرة، بعد التأنيب الذى لقيه من قائدة السيارة، لعلها تفهمه أن وسامته لم يكن لها تأثير كبير على تلك الفتاة.

« فى هذا الجو الحار تريد أن تلهو – لماذا؟ ان المشى فى الحر قد يوهن صحتكما بشكل ضار.»

وغيرت الفتاة ذات الشعر القاتم مقود السرعة وسارت وسط الطريق العام، واختلست نظرة قصيرة الى جولى تتفحصها فيما كانت الأخيرة تفعل الشىء نفسه، وكانت قائدة السيارة على شىء من الجاذبية، وكان شعرها البنى أكثر قتامة من شعر جولى دون أن يكون له سواد شعر غى. كان متوسط الطول وفيه خط فارق على الجانب، وكان ينثنى الى أعلى ليسهم فى اكتساب وجهها النحيل جمالا، وكانت تضع نظارة باطار مذهب أضفى على عينيها القاتمتين ضياء زاد من جمالها.

وابتسمت الفتاة ابتسامة سريعة موجهة الى جولى وهى تقول:

« اذا كان غى لايعنيه أن يقدم كلا منا الى الاخرى فلنفعل ذلك بأنفسنا. اننى شقيقته ميشيل.»

« اسمى جولى سمث وقد استأجرت حجرة من أبويك لأيام قلائل.»

قالت ذلك وقد ألقت نظرة جانبية على ملامح غى المهذبة.

« لقضاء عطلة أم تعتزمين الاقامة؟»

« عطلة.»

« وأخى العزيز جدا كان يصحبك فى جولة سياحية.»

ونظرت ميشيل الى غى نظرة لها مغزاها رد عليها بملامح بريئة، وأضافت فى ابتسامة: « كيف تنجح دائما فى العثور على الجميلات؟»

« اننى مغناطيس. وهن يجدننى كذلك. كيف حال التلاميذ الصغار المزعجين اليوم؟»

ورفعت ميشيل عينيها تجاه السماء، وهى تقول: « لاتسأل!»

وظهرت على وجهها نظرة ساخرة حزينة وهى تلتفت الى جولى لتقول:

« أعمل هنا فى التعليم. هل تصدقين أن أحدهم قد أخرج الحرباء من الصندوق الزجاجى وصارت تتسلق السرير الخاص باحدى التلميذات. ولقد سمعت من الصراخ اليوم ما سوف يظل صداه فى أذنى سنوات. وأظن أن الحرباء الصغيرة قد احست بالسعادة عندما أعيدت الى عالمها الزجاجى.»

وقال غى لجولى: « لا تصدقى هذه الشكوى، فانها تحب عملها بالقدر الذى يغرم به الاولاد بالبنات.»

وهزت جولى رأسها فى أسف، وقالت:

« ان عقلك يتجه دائما الى موضوع واحد.»

وعلقت ميشيل موافقة بقولها: « هل لاحظت أنت أيضا ذلك؟»

« لقد جعلنى أعتقد أنك واحدة من العديدات المتيمات به.»

واعترض غى قائلا:

« حسنا. أرجو أن تكفا أنتما الاثنتين عن مهاجمة رجل مسكين أعزل. كيف تحتفظ جولى بتقديرها لى اذا ما عاملتنى بهذه الطريقة الساخرة؟»

وهمست ميشيل قائلة: « طبيعة الرجل الهشة!»

وضحكت جولى لذلك، وصاح غى متصنعا الغضب: « ألم تعلمك أمنا أن الهمس امر غير لائق؟ أرجو ياجولى أن تتجاهلى ما قالته لك.»

وضحكت شقيقته، وقالت:

« لابد أن تجد من يحذرها ضد سلوك شبابنا فى الولايات الجنوبية..»

* * *

ووصلوا الى بيت لوبلان وعندما أوشك غى أن يستأنف شجاره مع شقيقته

ظهرت الأم عند قوس الباب الخلفي لترحب بهم. كانت تجربة غير عادة بالنسبة الى جولي وأحست بأنها تألف تماما أولئك الناس الذين لم يسبق لها أن تعرفت عليهم قبل يوم. فتحوا قلوبهم وأذرعتهم بالصداقة.

وأخذ غي يسأل: « حسنا. ما رأيك في شقيقتي؟ »

وكانت ميشيل قد استجابت لأمها التي طلبت منها أن تحمل أوراقها الى داخل البيت، وأجابت جولي في ابتسامة: « إنها رائعة »

« هل تصدقين أنها مولعة بمدرس التاريخ القديم وأن سقراط ويوريبيدس هما المنافسان لها »

ومثل قبضة موجهة اليه على سبيل المزاح قبل أن يضع حدا للمناقشة بينه وبين شقيقته عندما دخلت الأم حجرة المعيشة. كانت تحمل صينية عليها أبريق مليء بعصير الليمون وبعض الأكواب، ولم يكن الأمر يحتاج الى اقناع أي منهم بالمشاركة في الشراب المنعش. وقالت السيدة لوبلان:

« لقد تلقيت خطابا من كلودين اليوم وسوف تعود الينا مع نهاية الأسبوع »

وبدا أن غي لم يسعد بالخبر وقد ظهر ذلك على ملامحه أكثر مما بدا على كلماته وهو يقول: « وهل تطول اقامتها هنا؟ »

وأجابت الأم: « أعتقد أنها ستقيم معنا حتى موسم الاجازات »

وبدأ الصمت يسود المكان. وعلقت جولي قائلة:

« لابد أنها تعمل في مكان ممتاز يسمح لها بأن تستمتع بكل هذا الوقت »

وبدأت السيدة لوبلان توضح فقالت: « ابنتي فنانة وتعرض لوحاتها في نيوأورليانز خلال الأجازات في فصلي الصيف والشتاء. أما باقي السنة فإنها تمضيه هنا ترسم لوحات الكنفا الجديدة ليكون لديها باستمرار رصيد كاف »

ونظرت جولي الى كل من ميشيل وغي تتوقع منهما أن يشعرا بالزهو الذي تشعر به امهما، وقالت: « لابد أنها ناجحة الى حد ما »

وأومأت الأم في سرعة وقالت:

«نعم، انها كذلك، وأكاد أقول إن اللوحات التي ترينها هنا من كلودين »

وتذكرت جولي على الفور اللوحتين اللتين تزينان جدران حجرتها، كانتا تمثلان باقات من زهور الربيع بينها توافق وانسجام. ومع ذلك تختلف كل لوحة عن الأخرى في محتوياتها. وقد رسمت الزهور على أرضية لونها أزرق رمادي، ونسقت الزهور في آنيتين صينيتين متماثلتين في الشكل، يشيع

فيهما اللون الأزرق الفاتح. وقدرت جولي أنه اذا كانت كلودين هي التي رسمت تلك اللوحات فلابد أنها فنانة ناجحة للغاية.. وعندما سألت السيدة لوبلان عمن رسم تلك اللوحتين أكدت أنها كلودين. وكانت الأم على استعداد للإستمرار في تمجيد انتاج كلودين لولا دخول زوجها.

كان اميل لوبلان ضئيل البنية ويبدو كشاب نحيل القوام، وكان شعره فيما مضى قاتما كشعر غي ولكن الشعر الأبيض والرمادي بدأ يزحف على جانبي رأسه وعلى مؤخرة رقبته. وبعدما حيا اسرته وطبع قبلة محبة على وجنة زوجته استدار نحو جولي مبتسما ومستفسرا:

« من الآنسة الجميلة التي تشرف حجرتنا يا جوزفين؟ »

وبدأت السيدة لوبلان على الفور تشرح ظروف اقامة جولي وهي تقدمها اليه وكان ترحيب السيد لوبلان بها كريما كباقي أعضاء الأسرة، بل كان فيه نوع من المداعبة الودودة كترحيب غي بها وقال:

« جولي أنطوانيت. هذان اسمان فرنسيان ربطا باسم آخر شائع الاستعمال مثل سمث »

وبدأت جولي تشرح من جديد أسباب قدومها الى سانت مارتنفيل في محاولة للتعرف على مكان المستعمرة التي عاش فيها أجدادها، الى جانب رغبتها في القيام بسياحة في المعالم المحلية. وكانت اجابة اميل لوبلان هي الاجابة غير المحددة كما فعلت زوجته وابنه من قبل عندما ذكرت جولي كاميرون هول وإن كان قد أبدى حماسه للمشاهد المتوفرة في المنطقة. وقال

« ينبغي هنا أن نضع لك خطة لسياحة المنطقة حتى لايفوتك شيء خلال اقامتك هنا »

ونظر الى ابنه وابنته ليتحملا هذه المسؤلية، وأضافت السيدة لوبلان في حزم

« لايزال هناك وقت لذلك فيما بعد يا بابا، وأعتقد أن جولي تفضل أن تكمل شرابها وتأخذ حماما قبل العشاء، فهي لم ترغ بعد من رحلتها الطويلة ولم تتعود على الرطوبة العالية عندنا ولاينبغي أن نفرض عليها خططنا بأي حال »

وأومأ الأب يقول: « حقا، حقا »

والتفت الى جولي معتذرا لكنها أكدت له: «انني غريبة تماما عن هذه المنطقة يا سيد لوبلان، وأكون شاكرة حقا لوتفضلت بأي اقتراح ».

« مع ذلك فإن زوجتي على صواب فهذه المناقشات ينبغي أن تؤجل الى ما بعد العشاء »

والتفت ذراعه حول زوجته وقال :

«ماذا ستقدمين لنا الليلة ؟ هل فكرت في طبق خاص لضيفتنا الجديدة ؟ »

«ليس الليلة . دعها تتعود على مناخنا أولا ثم مطبخنا »

وحاولت جولي أن تعبر عن الاحساس الذي تملكها وهو الشعور بالذنب لأنها أقلقت حياتهم . ولكن اعتذارها لم يكن له مكان ، فقد أكدت لها السيدة لوبلان أنها لم تسبب لهم أدنى قلق .

ولم تملك جولي إلا أن تستسلم ، فقد كانت هي الأخرى تستمتع بدفء كبير في محيط الأسرة .

٤ ـ عينان في الغابة

كان الصباح قد استسلم الى شمس الضحى في اليوم التالي قبل أن تطمئن السيدة لوبلان الى أن جولي قد زودت بما يلزمها من الطعام والشراب والكتيبات والتعليمات التي تمكنها من السياحة يوما كاملا ، وجلست جولي في أمان خلف عجلة قيادة سيارتها وأخرجتها من الممر . لم تكن جولي تعرف وجهتها رغم الاماكن العديدة التي رشحت لها ، وكان الجو ينبيء بطقس يميل الى الحرارة . لذلك فضلت ألا تتجه نحو زيارة المتاحف . واختارت أن تسلك الطرق الجانبيه التي تحيط بسانت مارتنفيل ، وتستكشف الطبيعة من منظور آخر غير القيادة على الطرق العامة . وكانت تعتزم التوقف فيما بعد ، عندما يحل جو المساء اللطيف امام المنتزة العام الذي يحمل اسم لونغفيلو .

وسلكت طريقا يتجه من المدينة شرقا وتركت وراءها سانت مارتنفيل . كان الطريق خاليا وتركت سيارتها تسير بالسرعة التي ارادتها تبطيء عندما يشد عينيها منظر يثير الاهتمام وتسرع لتجعل الرياح المتولدة عن حركة السيارة تداعب وجهها . كانت مزارع قصب السكر تنتشر في المكان وبعض جذوعه تعلو فتظلل السيارة ، بينما بعضها الآخر لايكاد يصل الى النافذة . وانتشرت على جانبي الطريق منازل لم تكن تختلف في مظهرها عن امثالها في مسقط رأسها ، مع ذلك كانت من وقت الى آخر تلمح بيوتا تتكون من طابقين وقد تراجعت الى الداخل بعيدا عن الطريق تاركة أمامها مرجا أخضر يشقه طريق يؤدي الى البيت تحدده صفوف من أشجار البلوط . وكانت تخفف السرعة في محاولة للعثور على أية إشارة تدلها على كاميرون هول ، ولكنها كانت تصاب دائما بشيء من الاحباط .

واستسلمت لرغبة استولت عليها تدفعها للقيام بشيء من المخاطرة . وتركت الطريق المرصوف الى آخر تغلب عليه الأصداف البحرية ، وزادت كثافة مزارع القصب على جانبي السيارة حتى أحست بأن جذوعه البارزة تكاد تبتلعها .

وبدت بعض أغصان الأشجار من بعد تمثل مرفأ الأمان بعد مزارع القصب الممتدة . وتوارت جذوع القصب لتفسح مكانهالأشجار البلوط ترتفع في كآبة من مستقرها المائي تغطي أغصانها الطحالب الأسبانية . وبدت الزنابق المائية الجميلة تتصارع مع الطحالب لتبرز على سطح أوراقها الخضراء التي تستسلم للجزر الصغيرة من أعشاب المستنقعات والأوراق ذات الرؤوس الناتئة من أشجار النخيل القصيرة بسعفها المروحية الشكل .

وأبطأت السيارة سيرها لتلقي جولي نظرة على الحياة البرية في المستنقع . وسمعت بعض الطيور تصفق بأجنحتها ولكنها لم تر أثرا للحياة . وخاب أملها فقد كانت تحلم برؤية تمساح بري وأقنعت نفسها بأن ذلك مستنقعا صغيرا ، بل مجرد مصفاة لايمكن أن تأوى تمساحا نظرا الى قربها من مناطق السكن وعلى بعد أقدام أخرى كان المستنقع قد تحول الى أرض للمرعى ، وبدت قطعان الحيوانات ترعى العشب الكثيف في منظر لم تألفه جولي .وكانت تظن أن تلك الماشية تكثر في المناطق البرية من الولايات المتحدة ، لافي ولاية لويزيانا

واستدار الطريق في منعطف سهل حول المراعي ووجدت جولي إن على الجانب الآخر من الطريق خطا متعرجا من الماء سرعان ما اكتشفت أنه رافد كانت أشعة الشمس تسطع فوق سطحه بشكل جعله يعكس صفاء منظر هاديء .وكانت هناك رافعة تجرف من الشاطيء المقابل حيث كانت أغصان شجرة البلوط تتدلى فوق الماء .

وخطر لجولي أنه مكان رومانطيقي تسعد فيه بتناول طعام الرحلة الذي أعدته السيدة لوبلان . وكان هناك مدخل لبوابة على الجانب الآخر من الطريق يدعوها الى أن تستفيد منه كموقف للسيارة حتى لاتعيق المرور ، فأحسنت الاستفادة منه . وعبرت الطريق تحمل على احدى ذراعيها سلة الطعام والسجادة الصغيرة ، وتحمل على الذراع الأخرى الترموس وحقيبة يدها . وقفزت عبر حفرة مليئة بالماء كانت تفصل الطريق عن الرافد دون أن تزل قدمها أو يسقط شيء من يدها .

كانت وطأة حرارة الجو تنتشر عبر المكان ، وكانت أي حركة تبدو بطيئة واهنة تشبه قوائم الرافعة التي كانت ترتفع وتنخفض في بطء شديد . أما أصوات الطيور فقد أخرست ، وحتى صوت الماء الخافت وهو يعانق ضفة الرافد لم يكن مسموعا .

وتجمعت حبات العرق على جبهتها لتفترس أطراف شعرها الهشة وتزحف الى شفتها العليا حتى تسربت الملوحة الى فمها . وانحنت على العشب القصير وفرشت السجادة الصغيرة وأخذت ترتب الأشياء الى جانبها . كانت السيدة لوبلان قد وضعت في سلة الرحلة فوطة في كيس من البلاستيك استخدمتها جولي في إزالة آثار العرق عن وجهها ، وأحست بالإنتعاش عندما بدأت الرطوبة الجديدة تتبخر عن بشرتها .

وأحست بفتحة قميصها القصير المبطن بشريط من البلاستيك تضايقها فجذبت الكمين القصيرين الى أسفل حتى بدا خط الرقبة مستقيما من الكتف الى الكتف . وخفضت رأسها الى الوراء وعصرت الفوطة فتدحرجت قطرات من الماء فوق كتفيها تسلل بعضها الى صدرها .

وأخذت عيناها تتفحصان المكان المحيط بها . وعلى أمتار قليلة كانت هناك شجرة بلوط صغيرة تركزت عيناها على أغصانها العليا وانتقلتا الى الجزع ثم الى أسفل الشجرة . وتوقفت يدها فجأة عن الاستمرار في عملية الترطيب التي كانت تقوم بها ، فقد وقعت عيناها على رجل كان يسترخي هناك . وسرت الدماء في وجنتيها من وقع المفاجأة ، فقد كانت عيناه تتفحصانها في جرأة .

وأسرعت يدها تعيد كمي القميص الى وضعهما السابق ، وأدرك الرجل أنها لاحظت وجوده فنهض على قدميه وخرج من ظل الشجرة ووقف على بعد خطوات منها ولم تملك إلا أن تتراجع الى الوراء . وتحدث في اغراء قائلا :

« إنه ليؤسفني أن تحجبي هذين الكتفين الجميلتين »

وتسارعت دقات قلبها وامتدت يداها لتجمعا حاجياتها وتلعثمت قائلة :

« إنني .. إنني آسفة .. لم أكن أعرف أن أحدا هنا .. سوف .. سوف أجد .. م مكانا آخر »

« لاحاجة بك الى ذلك فأنا أرحب بأن تشاركيني الاستمتاع بمنظر ذلك الرافد »

كل شيء في صوته المهذب يجبرها على أن ترفع بصرها نحوه ، ووجدت نفسها تحدق في عينين لم يسبق لها في حياتها أن رأت مثلهما في القتامة ، وكانتا تلمعان في استثارة من وراء ظلال رموش قاتمة مجعدة ، وكان حاجباه وشعره بلون أسود أشبه بجناح غراب لامع وقد صبغت الشمس بشرته بلون بني

يشبه خشب الساج . ولم يبد في ساقيه البارزتين من سرواله القصير أي اختلاف عن لون ذراعيه . كان طويل القامة وجسمه ممشوقا يعكس انطباعا عن قوة في ذراعيه دون بروز في العضلات ، فيما كتفاه وسيمان عريضان . ولم يكن هناك أثر للترهل في مظهره وكان فخذاه مستقيمين ، وعندما ابتسم كشف ثغره عن أسنان بيضاء كاللؤلؤة . ولاحظت جولي الخطوط الغائرة التي برزت على جانبي فمه . وقال :

« أعد بأنني لن أضايقك »

واحمرت وجنتاها وقالت وهي تعرف أنها تكذب :

« لم يخطر لي أنك تضايقني »

« كان ينبغي أن يخطر لك ، فقد أحسست فعلا برغبة في ذلك »

وضاقت عيناه في خبث وهما تتفحصانها وهي في وضع الركوع . كانت جولي تتمنى أن تستنشق نفسا عميقا ولكنها كانت تخشى أن يبدو عليها القلق الذي كان يساورها . وحاولت أن تسترجع ثقتها بنفسها ووجدت الشجاعة من جديد فقالت : « لا أريد أن أقطع عليك خلوتك »

« على العكس »

قال الرجل ذلك ومشى عائدا الى مكانه أسفل الشجرة في وضع استرخاء الذي كان عليه ، واستمر يقول :

« إن جلوسك لتناول الطعام لن يؤثر على جلوسي لصيد السمك ويمكنك أن تبقي في المكان ذاته »

وامتد بصرها الى الصنارة والخيط المستندين الى عصا قرب حافة الشاطىء ووجدت نفسها تقول في صراحتها المعتادة :

«ولكن هذا الوقت من النهار ليس مناسبا للصيد ، فالجو حار »

وعلق قائلا : « يبدو أن لك خبرة في الصيد »

وأجابت جولي وهي تبطىء من عزمها على الرحيل السريع :

« بعض الخبرة »

وابتسم في مواجهتها من جديد وقال :

« إن لي نظرية حول الصيد في هذا الوقت من النهار أتحبين أن تعرفينها؟ »

وقعدت على السجادة الصغيرة وقالت :

« وما هي ؟ »

« أعتقد أن الأسماك الكبيرة الذكية تعرف أن الصيادين لايخرجون الى الصيد إلا في أوقات خاصة تتجنبها هذه الأسماك . أما في مثل هذا الوقت الحار فإنها تبحث عن الطعام في مأمن من شباكهم »

« وهل تحققت نظريتك ؟ »

« كلا ، ومع ذلك فهي فرصة لتدريب الديدان التي أستخدمها كطعم »

وقهقهت ساخرة ، ولكن سرعان ما سكتت عندما انحنت قصبة الصيد انحناءة مضاعفة . ووقفت جولي ترقبه وهو يشد القصبة وقد استولى عليها شك حبس أنفاسها . وشد الخيط بقوة وجعله يستقر على الشاطىء . وأحس بشيء على نهاية الخيط فاتجه اليه وانحنى ليلتقطه بينما زحفت لتلقي نظرة عن كثب وصاحت :

« يا لها من سمكة كبيرة ! »

« إننا نسميها جراد البحر »

وأخذ يقلم زعانفها ثم وضعها في دلو صغير

« هذه جرادة البحر ؟ »

قالت جولي ذلك وهي تحدق في السمكة وكانت الدهشة تبدو في صوتها لحجم السمكة الكبيرة الشهيرة جراد البحر . وسألها :

« هل سمعت قصة الكاجون وهجرتهم من كندا الى هنا ؟ »

ونظرت اليه في دهشة وهي تتعجب من صلة ذلك بسمكة جراد البحر وقالت : « نعم »

« وهل سمعت بأسطورة جراد البحر ؟ »

وأجابت جولي « لا »

« عندما اضطر الأكاديون أو الكاجون الى ترك كندا كان صديقهم المخلص جراد البحر يعيش في المياه المتجددة حول نوفا سكوتيا . وكره أن يراهم يهاجرون ولم يكن له مكان على ظهر السفن التي حملتهم بعيدا . وكان عليه أن يسير في أثرهم ، واستمر يسبح المسافة كلها هابطا بمحاذاة ساحل الاطلنطي الى خليج مكسيكو حتى وصل أخيرا الى رافد لويزيانا حيث أقام الأكاديون وطنهم الجديد . وكان للرحلة أثرها فقد أنقص التعب جراد البحر الى ربع حجمها السابق .. »

وهنا كانت عيناه الزرقاوان القاتمتان تنظران اليها وقد تقوس أحد حاجبيه

وكأنه يريد أن يتحقق مما اذا كانت تصدق أم لا . وأضاف :

« هكذا تحكي أسطورة جراد البحر »

« حسنا ، سواء كانت هذه الاسطورة حقيقة أم مجرد هراء عاطفي فإنني أحبها »

وتنهدت وقد بدا في صوتها شيء من الرضا ، وعاد يسألها من جديد وقد بدا الخبث في عينيه :

« هل نجحت القصة التي نحكيها لأطفالنا في أن تزيل قلقك بالحد الذي يقنعك أن تواصلي قضاء نزهتك الانفرادية هنا ؟ »

« نعم »

وبدا في صوتها شيء من الاضطراب عندما أسرت عيناه عينيها ، ولكن جولي استطاعت أن تتحرر من تحديق عينيه وقالت :

« إن لدي من الطعام الشيء الكثير ، هل تحب أن تشاركني ؟ »

وعلق قائلا : « كنت أظن أنك لن تفكري أبدا في أن توجهي الي هذه الدعوة »

« لم أكن أريد أن أشتت انتباهك وأنت تحاول أن تثبت صحة نظريتك ، وكنت أكره أن أكون سببا في ضياع السمكة الكبيرة منك »

قالت ذلك مقهقهة وهي تعود الى حيث كانت تستقر سلة طعامها ، وتابعت : « بالطبع . لو أن السمك الكبير على ذلك القدر من الذكاء كما تظن فمن المحتمل أنه سمع نظريتك وبدأ يحتاط ضد حيلتك »

كانت قد أحبت صوته المرح أثناء الضحك وهو ينضم اليها فى تناول الطعام، ومع ذلك كانت هناك أشياء عديدة حول ذلك الشخص الغريب الذى أعجبها الى جانب نظراته الوسيمة المؤثرة. ورغم ذلك فان أسلوبه الذى ينم عن الثقة الزائدة بالنفس والذى بدا فى قدرته على اعادة الطمأنينة الى نفسها، جعل جولى تعتقد أنها أمام شخص يتفوق عليها فى الخبرة. ولم يكن بوسعها أن تسمح لسحره الاحتيالي أن يتسرب الى عقلها، ومع ذلك لم تستطع الا أن تستجيب بابتسامة مماثلة عندما جلس على السجادة الصغيرة الى جانبها، ووضعت رقائق البطاطس بينهما قبل أن تمد يدها لتخرج بقية الطعام. كانت هناك شريحتان من اللحم البقرى المشوى قدمت اليه احداهما واحتفظت لنفسها بالأخرى، وقالت: « يمكنك أن تختر من التفاح أو البرتقال، أو من

كليهما. ويوجد من كل زوجين اثنان هنا.»

« هذا كثير. شكرا!»

وسادهما صمت وهما يتناولان الطعام. منحهما الفرصة للاستمتاع بمذاقه الشهى. ووجدت جولى نفسها تضطر للاعتراف بأنها تستمتع بالوجبة، وأحست لأول مرة بحريتها فى أن تكون على سجيتها وألا تقيم وزنا لمشاعر أى شخص آخر مثل والديها أو جون.

ومدت يدها الى الترمس تتناول كوبا من عصير الليمون. وادرك أنه لا يوجد غير كوب واحد وملأت الكوب وقدمته اليه، كما اقتسما الطعام. وعندما أعاد الكوب اليها بعدما شرب نصيبه، سألته جولى: « هل أنت أكادى ؟»

« أنا أومن بفلسفتهم فقط.»

« ما هى فلسفتهم؟»

« الأفضل أن تعيش حياتك لاأن تكتفى بأنك مجرد كائن حى. والافضل أن تغني لا أن تسب وتلعن. والافضل أن تعيش للحب لا للحرب. وفى بساطة أكثر فأن الأكادى يحب القهوة الثقيلة والضحك والحديث والغناء والرقص والأطعمة الدسمة وأكثر من ذلك كله يحب النساء.»

« ولكنك لم تحدثنى عن النساء الاكاديات هل يحببن هذه الأشياء أيضا؟»

« انهن يضفن الى القائمة الاطفال والثرثرة وأزواجهن.»

واعترضت قائلة: « أن ذلك ليس عدلا. لقد قلت أن الرجال الأكاديين يحبون النساء، والأن تقول أن النساء الأكاديات يقتصرن على حب أزواجهن.»

« عليك أن تأخذى فى اعتبارك أن الأكاديين لديهم اهتمامات ترجع الى أصلهم الفرنسى تجعلهم يقدرون جمال كل امرأة بصرف النظر عما اذا كانوا متزوجين أم لا.»

كان بامكان جولي أن تستنتج أنه يتعمد أن يبدو كما لو كان مثيرا للغضب ومع ذلك أحست بأن كلامها مثير ولو بدرجة طفيفة. وقالت فى لهجة تنم عن الاحتقار:« هه. ليظهروا بمظهر العاشقين العظام؟»

وأخذ البرتقالة التى كانت بيدها وراح ينزع قشرتها قائلا:

« ان الرجال الفرنسيين يعرفون أن النساء يرددن زهوا بالمديح والاطراء، وقد يقول الرجل«أن شعرك كثيف لامع» وهو يحلم بأصابعه تمتد بين تجاعيده الناعمة« وان النمش على بشرتك يجعلك تبدين فى شباب دائم تتذكرين أيام

الصيف المشمسة» ! وتلك الأعين البنية الناعمة تذكره بأنثى الظبى التى تخش أن تدخل مرجا غريبا.» كانت عيناه الزرقاوان تنعمان النظر فى كل ملمح من الملامح التى يذكرها. وتابع: « وشفتاك المقوستان فى استدارة جميلة رقيقة تعدان بعذوبة ما بعدها عذوبة.»

كانت عيناه تحدقان فيها بشكل آسر لايسمح لها بأن تتحول عنه. كانت البرتقالة التى نزعت قشرتها بين يديه فقطع منها شريحة وضعها بين شفتيها، فانفتح فمها يتقبلها بطريقة آلية وقد أحست بأنها قد أكلت الثمرة المحرمة.

وأطلقت من حيث لاتدرى ضحكة للتمويه حاولت معها أن تتخلص من عينيه المحدقتين. وشعرت بالرغبة فى البكاء.

«من حسن حظى أن ذلك الشاب الفرنسى ليس موجودا هنا. اذ كنت سأشعر بالذنب لو أننى رفضت الاطراء الذى يقدمه لى من باب المجاملة.»

« وهل بدا لك ذلك مجاملة؟»

«دعنى أقول لك أن عبارة المنمقه كان فيها شىء من المبالغة الشاعرية. ولكن الاطراء من أجل الاغراء غالبا ما يكون كذلك.»

وابتسم قائلا:« انك تتعمدين التقليل من قدر جمالك.»

«أوه! أننى لاأتواضع الى الحد الذى أتجاهل معه أن لى جمالا على طريقتى الخاصة. ولكننى لست هيلين الجميلة فتاة طروادة.»

«ان مايريده الرجل من المرأة هو الحب وليس الحرب. قد يذبل سحر المرأة اذا كان على الرجل أن يصارع منافسيه باستمرار ليثبت حبه.»

« هل هذا اطراء معكوس تقلل من شأن الجمال وترفع من شأن البساطة ؟»

« لا، كنت أقول فقط أن الجمال الباطنى أكثر سحرا من الجمال الظاهرى.»

كانت جولى قد نهضت على قدميها، وبدأت تحمل اللفائف المختلفة على ذراعيها. وكان الرجل يمتدحها لكنه لم ينجح الا فى أن تحس بمزيد من الضيق لنقص جمالها. كانت من قبل على ثقة كبيرة دائما، وقادرة على أن تحتفظ بثباتها أمام أى رجل. أما هذا الرجل فكانت له جاذبية خاصة ومؤثرة الى درجة كبيرة. كان يبدو وسيما حتى خشيت أن تتورط فى أى مداعبة معه. ورأت أنه من الأفضل أن تهرب قبل أن تتورط فى شىء تخشى عقباه.

« أرجو ألا تظن أننى أقتسم طعامى ثم اهرب ولكن من الأفضل أن أعود

الآن.»

وابتسمت دون أن تسمح للمرارة فى فمها أن تؤثر على كلمات الوداع.

« ولكن وقت ما بعد الظهيرة لايزال ممتدا.»

كان هو الآخر قد نهض على قدميه، وبدأ يختلس النظر اليها بطريقة تستحثها على البقاء.

« لكن اجازتى قصيرة.»

قالت ذلك والأسف بدا فى التنهيدة التى أطلقتها. ومد يده ليأخذ سلة الطعام من يدها فشعرت بأسف عندما كف عن الالحاح عليها فى البقاء، فيما كان قد وقف ينتظر منها أن تسلك الطريق الى سيارتها.

وعندما تم وضع كل شىء على مقعد السيارة الخلفى التفتت جولى، قائلة:

« وداعا.»

وامتد اصبعه الى وجنتيها وقال: « عليك أن تطلى سيارتك بطريقة تنسجم مع النمش على وجهك. عندئذ يكون كلاكما أنثى طائر جميل تستعد للعودة الى مأواها.»

« سيكون ذلك بدعة!»

قالت ذلك وهى لا تجروء على النظر الى عينيه. وجلست خلف عجلة القيادة، وقالت: « شكرا على قبولك مشاركتى إياك مكانك المختار للصيد.»

« شكرا على وجبة الظهيرة.»

« حسنا. الى اللقاء.»

قالتها بالانكليزية، وبدت الكلمات مبهجة حتى على أذنى جولى.

« لا تقوليها بالانكليزية، ولكن بالفرنسية.. حتى نلتقى ثانية!»

كانت جولى قد أدارت محرك السيارة وانطلقت بها. وخطر لها أن الفرصة للقاء ثان أمر بعيد الاحتمال. اذ كيف يتسنى لهما أن يتقابلا من جديد؟ لم يكن يعرف اسمها أو مكان سكنها، كما هى لم تكن تعرف شيئا – عنه. وكان ذلك الخاطر محزنا فى حد ذاته.

٥ – رعشة فى المعبد

كان غي ووالده يحضران اجتماعا يعقده احد الاندية المحلية، وكانت السيدة لوبلان تزور قريبة لها كبيرة فى السن. وجلست ميشيل على الاريكة المغطاه بفراش ذى نقوش مربعة، وحولها بعض الكراسات تقوم بتصحيحها بينما آلة التسجيل تملأ الحجرة بموسيق مرحة. وجلست جولي تكمل رسالة كانت تكتبها الى خالتها بريجيت ولم تكن تستطيع أن تجعلها مبهجة مثل الرسائل السابقة . كان شبح الوجه القوي بشعره الأسود القاتم وعينيه الزرقاوين يطل عليها باستمرار وكانت تحس بالإحباط لأنها لن تراه ثانية .

لقد سبق لها أن احتكت برجال على هذا القدر من الجاذبية وكانت تعجب بنظراتهم حقا . ولم تكن تحس بالكآبة لافتقادهم ولكن الأمر كان مختلفا مع هذا الرجل . لقد اعترفت جولي لنفسها صراحة أنه سحرها بما يعرفه عن لويزيانا ، وبما يتمتع به من مرح وفكاهة . ولأنه لايحس بزهو أو خيلاء ، كان واثقا من نفسه ولم يكن متغطرسا يغيظ الآخرين أو يسخر منهم . كان يعرف الكثير ولايتباهى بما يعرف . وحاولت أن تكف عن التفكير فيه فلم تعد بعد طفلة ولم تكن من النوع الذي يستسلم للأحلام .

وأطلقت تنهيدة عميقة سمعتها ميشيل فرفعت عينيها من وراء النظارة ذات الاطار المذهب وسألتها : « هل تكتبين الى فتاك ؟ »

« لو بقيت في ذرة من العقل لكتبت له ، ولكنني أكتب لخالتي »

« اجابتك توحي لي بشيئين : أن لك فتى وأنك على خلاف معه »

« أنت على صواب في كلتا الاستنتاجين »

« هل تفتقدينه ؟ »

« لا . ولكن ضميري يؤنبني بين الحين والحين »

قالت جولي ذلك في ابتسامة حزينة .

« كان يحبك وأنت لا تحبينه ، وهذا يجعلك تشعرين بالقلق »

قالت ميشيل ذلك وهي تربت على اوراق في حجرها مالبثت أن رتبتها في كومة منظمة ثم وضعتها مع باقي الكراسات على جانب من الأريكة .

« إن لدى جون كل ماتحلم به الفتاة في أي شاب ، فهو لطيف ومحب ووسيم . كنت أهتم به كثيرا ولكنني لم أشعر بالسعادة عندما كان يعانقني »

وضحكت جولي من نفسها وتابعت« إنني لم أعثر بعد على فتى أحلامي »

« طموح زائد ! »

قالتها ميشيل وهي تومىء برأسها .

« ماذا ؟ »

« طموح زائد ! شيء كثير »

كانت الكلمتان تعبران عن حقيقة مشاعرها تماما ، ومع ذلك لم تكونا تقدمان لجولي تفسيرا محددا لما تبحث عنه . وبدا أن أنسب شيء أن تعمل بنصيحة خالتها فلا تشغل نفسها بالمشكلة . وتترك للوقت حل كل شيء .

وقالت جولي : « لقد فكرت في الذهاب الى أوبيلوساوس غدا لأزور متحف جيم باوي ثم أزور مدينة لافاييت »

وتطرق الحديث في الذهاب الى ما يعجب السائح في كلتا المدينتين . وعندما استقرت جولي في فراشها تلك الليلة عز عليها النوم وحاولت أن تشغل نفسها بالتفكير في برنامج اليوم التالي ، ولكن عقلها كان مشغولا بشبح ذلك الرجل الغريب . ونامت نوما متقطعا وهي تتقلب في فراشها .

وخرجت جولي الى أوبيلوساوس ولافاييت لتستنفد طاقتها الجسمية والعقلية ، ونجحت في ذلك الى الحد الذي لم تستطع معه أن تتذكر اذا كان المنزل الذي على هيئة السفينة الغربية القوطية في أوبيلوساوس أم في لافاييت بينما كان في قرية أصغر حجما تسمى واشنطن .

وفي الصباح التالي انتزعت نفسها من الفراش انتزاعا فقد نامت نوما عميقا واستيقظت كما لو كانت تحت وطأة عقار مخدر . كان فمها جافا وكان النوم مازال يلتصق بجفنيها الثقيلين وهي تهبط الدرج . وجاء صوت السيدة لوبلان المرح يتردد في ابتهاج : « صباح الخير »

والتفتت جولي بدهشة وعرفت مصدر الصوت عندما رأت السيدة لوبلان

قرب باب المطبخ .

وقالت السيدة لوبلان : « تجدين عصير البرتقال الطازج في الأبريق والأكواب في الخزانة اليمنى فوق الحوض . ماذا تريدين للإفطار ؟ »

« بعض الخبز والقهوة »

وسألتها السيدة لوبلان وهي تضع طبق الخبز أمامها وتعود الى الخزانة لتحضر القهوة : « ما برنامجك اليوم ؟ »

وأجابت جولي وهي ترتشف عصير البرتقال :

« لاشيء .لقد فكرت في الذهاب الى المنتزة العام هنا في سانت مارتنفيل »

« حسنا ، لعلك تذكرين أنني حدثتك عن واحد من أصدقائنا يمتلك مستعمرة قديمة »

وحاولت جولي أن تتذكر أسمه وقالت : « إتيان »

« نعم ، لقد اتصل بي هاتفيا بالأمس وذكرت له أنك تقيمين معنا وتودين رؤية المناظر هنا ، وهو يرحب بزيارتك لمستعمرته اليوم »

وردت جولي : « اليوم ؟ اليوم ؟ »

لم تكن تعرف ما اذا كانت في حالة تسمح لها حقيقة بتمضية بعض الوقت مع رجل فرنسي ثرثار كبير في السن .

« لقد اقترح أن تكوني هناك حوالي العاشرة صباحا قبل أن تشتد وطأة الحر والحق أنني لم أسئله عن المكان الذي تبحثين عنه ، ولكن من المحتمل أنه يعرف شيئا »

« كاميرون هول ؟ »

حسنا لقد حسم الأمر . كانت كاميرون هول السبب وراء حضورها وكان من الخطأ أن تفوت أول فرصة أتيحت لها للحديث الى شخص ربما يعرف عنها شيئا مفيدا .

« لقد أخبرته أنني واثقة من أنك ستذهبين . أليس كذلك ؟ »

وأومأت جولي موافقة وهي تقول :

« أوه .. كم أتمنى ذلك »

وابتسمت السيدة لوبلان وقالت :

« إن المعبد مستعمرة إتيان يقع على مسافة أميال من المدينة وسأكتب لك التعليمات التي تساعدك في الوصول الى هناك »

وعند التاسعة والنصف خرجت جولي قاصدة مستعمرة إتيان ولم تكن قد استعادت سرورها وابتهاجها بالقدر الذي عرف عنها . ولم تتخلص من تلك الكآبة حتى بعدما اكتشفت أن تعليمات السيدة لوبلان قادتها الى الطريق الذي قابلت فيه الرجل الغريب ، بل لقد غمرها الفرح بحماقة عندما قادتها تلك التعليمات الى منطقة أخرى من الريف فلم تكن راغبة في أن تعود الى المكان الذي يذكرها بالعينين الزرقاوين مرة أخرى .

كان هناك طريق ترابي يتفرع عن يسارها يحمل لافتة كتب عليها طريق خاص . ممنوع المرور . وتنهدت جولي فقدكان ذلك الطريق المؤدي الى المكان الذي تريده . وبدأت تحس بنوع من الاهتمام شغلها عن عنائها عندما اقتربت من المكان المقصود . كانت السيدة لوبلان قد أخبرتها أن المستعمرة ستكون على يسارها بعد مسيرة حوالي ربع ميل من المنعطف في الطريق الترابي ، وكان هناك سور متهدم يسير موازيا للطريق ، وبدا السلك الشائك ينفصل في نقاط عديدة عن الأعمدة .

ومع ذلك لم تكن هناك فرصة ليجرؤ أي انسان على التعدي بالدخول الى الملكية الخاصة من خلال السور مالم يكن لديه منجل ، فقد كانت هناك كروم وأشجار نخيل شائكة ذات سقف مروحي قصير .

كان كل ما تستطيع جولي أن تراه من خلال الأشجار الكثيفة مجرد شبح لمبنى كبير أبيض ، وكان ذلك هو القصر المقام في المستعمرة ولكنه لم يكن يرى بوضوح من الطريق . وكان هناك عمودان أبيضان يحددان المدخل الذي كان مغلقا بواسطة بوابات حديدية صنعت من قضبان متقاطعة .

وبدأت تحس بوضوح أن العز والأبهة قد أدارا ظهرهما الى ذلك القصر . وفكرت في صاحب المستعمرة إتيان وتوقعت أن يكون شخصا شاذا غريب الأطوار . وأوقفت سيارتها الفولكس واغن على جانب الطريق الضيق ونزلت واتجهت الى البوابة وراحت تنظر من خلال القضبان محاولة أن تجد أثرا للحياة كان المكان يبدو مهجورا واستطاعت أن تجد الجرس يتدلى الى جانب أحد العمودين وجذبت الحبل الملتصق به وتردد صوت الجرس قاطعا الصمت ، وكان من المتوقع أن يؤدي ذلك القرع غير المنسجم الى ايقاظ أي شخص نائم . وخطت خطوات لتقف أمام البوابة .

وسمعت حفيفا مفاجئا ينبيء عن شيء ينطلق دون أن يلاحظ ، تبعه

صوت دوامة هوائية تتجه اليها . وفجأة وجدت نفسها تحدق النظر في الأنياب البيضاء المعبرة عن الغضب كشف عنها كلب مزمجر وضع رجليه الأماميتين على البوابة حتى أصبح على مستوى النظر معها . وقفز قلبها الى حلقها وتسمرت ساقاها وهي تحدق في كلب ألماني من كلاب الرعي . كان في سواده أشبه بليل بلا قمر ولا نجوم . لم تكن تلك هي التحية التي توقعتها ، ولم يكن ذلك هو الضيف الذي جاءت تزوره .

وعاد اليها الإطمئنان عندما أدركت أن الكلب لايستطيع أن يتخطى البوابة . ولم يكن في نيتها أن تنتظر من يكون السيد إتيان ، أو كيف يبدو أنه سيكون . وقررت العودة الى سانت مارتنفيل ، وبينما كانت متجهة نحو سيارتها سمعت صوتا قويا يخاطب الكلب قائلا :

« بلاك ، إركع على الأرض»

والتفتت جولي الى الوراء لترى على الفور فم الكلب المزمجر يطلق أنه مرحة بينما جثى على ارجله الأربع وأخذ يهز ذيله وقد أدار رأسه نحو الرجل الذي بدأ يخرج من القصر . وحدقت جولي وهي تكاد لاتصدق عندما رأت الرجل يربت على رأس الكلب قبل أن يواصل السير نحوها . لقد كان الرجل الغريب نفسه الذي قابلته عند الرافد .

وبدت على ثغره ابتسامة عريضة زاد في وضوحها اللمعان الجريء في عينيه الزرقاوين وهو يقول :

« أرجو أن تصفحي عن بلاك وطريقته في الترحيب بك . انه لم يتعود على الغرباء حتى ولو كانوا من النساء الصغيرات الجميلات »

« لقد جئت »

وتجمدت الكلمات في حلقها وهي تحاول أن تحدق فيه . وانتابتها الدهشة والحيرة وتابعت : « أ .. أنت .. أنت إتيان ؟ »

« في خدمتك يا آنسة جولي أنطوانيت سمث ! »

كان يحني رأسه انحناءة كبيرة ، وبدا شعره القاتم يلمع في سواد يشبه سواد كلبه بلاك .

« ولكن كيف ؟ أعني كيف عرفت ؟ »

كانت تتلعثم مثل تلميذ في المدرسة .

« كنت متأكدا الى حد ما ، فقد تعرفت على سلة الطعام وعلى طريقة

جوزفين في الطهو ، وتأكدت من ذلك عن طريق مكالمة هاتفية معها »

وفتح قفل البوابة وحرك ضلفة مصراع الباب ليسمح لها بالدخول ، وأحست باندفاع عندما أدركت أن إتيان كان يقتفي أثرها . ولم تستطع أن تخفي سرورها للعثور عليه مرة أخرى . واجتازت البوابة ذات القضبان وما أن خطت نحو الداخل حتى توقفت لتطرح سؤالا خطر لها :

« لماذا لم تخبر السيدة لوبلان بأننا تقابلنا في اليوم السابق ؟

كان قد أغلق البوابة وراءها ووقف قريبا منها لدرجة أنهما كادا يلتصقان . وكاد إقترابه منها يجعلها تكف عن التنفس خاصة عندما بدأت تتفحص تعبيراته التي لاتعرف عمقها في عينيه الزرقاوين المبتهجتين .

« ولماذا لم تفعلي أنت ؟ ! »

« لم تكن لي الميزة ذاتها التي كانت لك ، فلم أكن قادرة على استنتاج المكان الذي تقيم فيه »

وظهر على وجنتيها حمرة خجل طفيفة استطاعت بعدها أن تخطو لتتجنب التصاقه الذي كان يسبب لها شيئا من التوتر وأضافت :

« ثم كيف كان يمكن أن يكون وقع ذلك لو أنني أخبرتها بما حدث لدى لقائنا بعد الظهر في ذلك اليوم ؟ »

وضحكت في تردد وواصلت :

« كيف كان بإمكاني أن أقول مثلا يا سيدة لوبلان ، لقد تقاسمت طعام رحلتي مع رجل له شعر أسود ، وعينان زرقاوان تفيضان بالحيوية ، وعمره في الثلاثينات ، ولكنني لا أعرف أسمه ؟ ! »

وهز رأسه وابتسم قائلا :

« ليس غريبا ، ولكنك لاتقدرين على ذلك ولعل هذا هو السبب الذي منعني من أن أطلبك بالتليفون »

« لا تطلبني ؟ لماذا ؟ »

كان الاضطراب قد بدأ يظهر في خطوط متكسرة على جبهتها بينما أمسك ذراعها وهما يسيران نحو القصر وقال :

« فيما مضى كنت أتجنب العذارى المفعمات بالنشاط والحيوية لأنهن في العادة يجلبن التعقيد الى حياة الانسان وهي مسألة ضمير »

« واذن ، لماذا طلبتني ؟ »

« ربما دفعني باعث الى ذلك ! »
وتسمرت يده على ذراعيها لتحد من خطواتها وجعلها تقف بجانبه ، وركزت جولي عينيها على حذائه اللامع وعلى بنطلونه الأبيض العاجي ، وبدا في كل حركة من حركاته انه صاحب المستعمرة المهيب . واستأنف الكلام :
«ولكنني يا جولي سعيد لكوني استسلمت لذلك الباعث »
ولم تستطع اخفاء احساسها بالسرور ، كانت تريد أن تقول انها سعيدة كذلك ، ولكن كبرياءها وعدم تأكدها من مشاعره نحوها منعاها من ذلك . ولم تستطع في الوقت نفسه أن تنكر سعادتها لأن ذلك كان سيبدو كذبة واضحة .ولم يكن اتيان ذلك الرجل الذي يغيب عنه ذلك . ومن هنا فضلت ألا تجيب على الاطلاق وسألها :
« هل أنت آسفة لمجيئك ؟ »
ولم تحاول أن تكذب . فقد كانت عيناه تلحظان بدقة كل سكنة من سكناتها فقالت : « لست آسفة »
قالتها في صراحة وقد استجمعت كبرياءها لتواجه عينيه المتفحصتين وبدا على فمه طيف ابتسامة وقال :
« انك عظيمة فالصراحة عادة ليست فضيلة تتسم بها النساء »
وعلقت على الفور : « ولا الرجال »
وضحك ضحكة خافتة اقترنت بها ابتسامة عريضة وأحست جولي بالدفء يغمر وجنتيها . واستأنفت السير على الفور وهى لاتخفى احساسا واضحا بالرجل الذى يسير الى جوارها. وقال وهو يضحك:
« ان لسانك لاذع. أعتقد أننا سنستمتع تماما بيومنا يا بلاك.»
كان يوجه كلمته التى قصد بها المضايقة الى كلب الرعى الألمانى الذى يسير مسرورا الى جانبه، وكانت عينا جولي البنيتان اللامعتان تنظران فى شىء من الغيظ الى طريقته الزائدة عن الحد فى أظهار الثقة بالنفس.

* * *

كانت الشجيرات الكثيفة قد بدأت تتضاءل دون أن تلحظ جولى ذلك. وبدأت خطواتها تتعثر، ثم توقفت تماما. فقد كان أمامها منظر لايمكن أن

تتغاضى عن رؤيته. كان هناك قصر ضخم يرتفع فى الفخامة. واحتبست أنفاسها. فالأعمدة الضخمة تحيط بالبناء المربع الشكل وتحمل شرفة فى الطابق الثانى كذلك الافريز الثقيل الذى يزين السقف المسطح. وكان ارتفاعه يثير الرهبة. وكانت هناك ضلف خشبية ذات لون أخضر غامق، تغطى النوافذ التى تمتد من الأرض الى السقف فى كل طابق، وتحمل واجهة المنزل التى تحولت الى لون أصفر باهت مع مرور الزمن، بينما تدل أجزاء متبقية من الطلاء على أن القضبان الخشبية فى الشرفة العليا كانت فى يوم ما مطلية بطلاء أبيض.
وبرغم الشوائب التى أثرت على البناء الذى عمره قرن، فقد بقى للمبنى بهاءوه وفخامته اللذان لم يكن يعرف السر وراءهما. وكان طرازه الاغريقى يضفى عليه رونقا ملكيا رغم تهدمه الجزئى. وكانت المستعمرة محاطة بأشجار البلوط الضخمة وأغصانها بحجم جذع الشجرة العادية، تتدلى الى الأرض بدرجة تمكن الانسان من أن يجلس عليها كما لو كانت مقعدا. وكما هى العادة، فقد كانت تلك الأغصان المورقة مكسوة بالطحالب الأسبانية ذات اللون الرمادى المائل الى الاخضرار.
وحولت جولى بصرها فى النهاية الى إتيان الذى كان يتسم فى رقة وتعاطف وقد أدرك كم كان المنظر مثيراً. وقال:
«ان المعبد يترك دائما الانطباع ذاته على أى وافد غريب.»
وعاودت النظر الى المستعمرة وأطلقت أنفاسها قائلة:«يا لسعادتك بامتلاكه.»
وابتسم فى حزن وقال : «انها هى التى تملكنى.»
كانت عيناه تلاحقان عينى جولى، بينما استقرت يده على ظهرها. واستأنفا السير نحو القصر وواصل كلامه:
«وانها لأعز لدى من أى سيدة عرفتها من قبل. لقد شهدتها لأول مرة منذ أربع سنوات ولم تمضى سنة بعدئذ حتى كنت قد استسلمت واشتريتها.»
ونظرت جولى اليه فى شىء من الدهشة، وقالت:
« كنت أظن أن المعبد كان مقر اقامة أسرتك، وأنك قد ورثته عن أجدادك.»
« لو كان كذلك لما سمحت بأن يصل الى الحال التى كان عليها عندما اشتريته. لقد كان يستعمل حظيرة للمواشى!!»
كانت هناك خمس درجات تؤدى الى الرواق الخشبى المسقوف والى الباب الضخم المزدوج المؤدى الى الداخل. ولاحظت جولى أن الأجزاء التى اكتست

بألواح خشبية حلت محل الألواح البالية فى المدخل، بينما فتح إيثان أحد الأبواب ووقف ينتظر أن تتقدمه لتدخل الى البيت. وكان المكان معتما الى درجة كبيرة فى البداية، ثم اعتادت عيناها النظر فى غياب أشعة الشمس الساطعة. وبدأ إيثان يفسر لها سبب البرودة فى الداخل: «ان سماكة الجدران تصل الى حوالى قدمين، ولذلك تظل درجة الحرارة منخفضة على مدار السنة»

كانت الردهة الفسيحة تقسم المنزل قسمين، وكان هناك باب آخر مزدوج أمام جولى. وعندما فتحته وجدت على جانبى الردهة أربعة أبواب، وكانت هناك على الجانب الآخر ثلاثة أبواب وسلم حلزونى. وكان المكان خاليا من أى أثاث ما عدا منضدة. وأمسك إيثان بمرفقها، وسار بها الى الصالة وقال:

« ان أرضية الطابق الاسفل خربتها الماشية كليا، وقد استبدلتها باخرى جديدة فى الشتاء الماضى.»

وتبعته جولى وهو يسلك الطريق الى حجرة مخصصة لحفظ أدوات المائدة، وكذلك الى الحجرة الكبيرة التى تشبه حجرة المعيشة فى يومنا هذا، ثم الى حجرة المائدة فحجرة المكتب حيث كان مالك المستعمرة يصرف أموره اليومية ويحتفظ بسجلاته، وأخيرا الى حجرة صغيرة كانت تستخدم قاعة للجلوس.

كانت كل الحجرات عارية من الأثاث وتحت الترميم. ولاحظت جولى الخطوط القاسية على وجهه وهو يشرح كيف أن أماكن المدفأة المحفورة فى كل حجرة قد خربت عن عمد وأصبحت غير قابلة للاصلاح، وأوضح أن بدائل منها يجرى اعدادها وأحست بغصة لأن الصورة الاصلية لن تعود كما كانت. وابتسم وقال: « شكرا لله أن الماشية لاتحاول أن ترتقى السلم.»

وقادها الى الدرج وتابع:« هذا القصر له سلالم حلزونية بيضاوية فاخرة لاتستند الى دعائم خارجية، والدرج مصنوع من الخشب السرو، أما الدرابزين المنقوشة فمن الماهوجنى ولم تستخدم المسامير فى تثبيته، فكل عمود ركب بمفرده فى الدرج وفى القضبان.»

كان الخشب لايزال يحتفظ بلمعانه أملس صقيلا، ولم تستطع جولى أن تمنع يدها من الانزلاق على سطحه وهما يتسلقان الدرج الى الطابق الثانى. وهنا وجدت أن المدافىء فى حجرات النوم لم تمس رغم مظاهر الاهمال فيها. وكان اثيان قد قام بتنظيف إحداها وأعاد طلاءها، وكان هناك مزيد من الأثاث يعانى من القذارة التى تطمس جماله.

واصطحبها مرة ثانية الى الردهة التى تقسم الطابق الثانى الى قسمين متساويين يقع عند طرف كل منها باب مزدوج يؤدى الى الرواق العلوى، وجعلها تجتاز أحد هذين البابين، وكان المنظر الذى شهدته مثيرا وأدركت أنه يطل على الجانب المقابل لواجهة المبنى حيث المروج الخلفية.

كان هناك شريط من المياه اللامعة يومض لعينيها من خلف أجمة من أشجار البلوط والنباتات جميلة الأوراق والزهور. والتفتت الى إيثان سائلة:

« هل هناك بركة مائية؟»

« ذلك هو الرافد « تيشه». لم تكن هناك طرق فى الماضى، وكانت المستعمرات تقام على حافة رافد أو آخر للانتقال، تماما كما كانت المستعمرات الأولى تقام على ضفاف «المسيسبى» وبذلك كان يسهل عليهم نقل المحاصيل. فقد كانت المجارى المائية هى الطرق فى الماضى فى لويزيانا.»

وأومأت جولى اقتناعا، وبدأت تنظر من جديد اى المروج الخضر، وخطرت لها فكرة مفاجئة: « انك لم ترنى المطابخ..أين هى؟»

« كان الناس يخشون النار كثيرا، ولذلك لم يقيموا المطابخ داخل المبنى الرئيسى.»

وابتسم اثيان لسؤالها الأنثوى وتابع: « لقد وجدت بعض الأساسات فى الجانب الشمالى على مقربة من حجرة الطعام، وأعتقد أنها كانت مطابخ.»

وسألته: « أين تعيش؟»

ولمعت عيناه لسؤالها بشكل أربكها، وتابعت: « أقصد، بعقل أنك تعيش داخل هذا البيت، أو على الأقل ليس الآن.»

وأخذها، وقال: « تعالى، سأريك أين أعيش.»

كان دفء يديه يبعث فيها شعورا بالرجفة.

٦ – النار الطيبة

عاد إيثان ومعه جولى الى الطابق الأرضى عبر الباب الذى دخلا منه، ثم استدار الى اليسار بدلا من أن يسلك الطريق المؤدى الى سيارتها، وبينما كانا يدوران حول القصر اكتشفت جولى مبنى بدا وكأن نسخة مصغرة عن المعبد. وصاحت فى بهجة: « انه نسخة مصغرة ومطابقة للقصر.»

« تعرف عادة باسم الغارسونييرة حيث كان يسكن عادة الشبان غير المتزوجين من الأسرة.»

وفتح الباب ثم وضع يده على كتفها ثانية واصطحبها الى الداخل. كانت حجرة واحدة كبيرة تتصل بدرج يؤدى الى الطابق الثانى وحاجز حديدى يعزل منطقة المطبخ. وكان الأثاث بسيطا يناسب الرجل. وقادها ضغط يده عليها الى داخل الحجرة. كانت أشبه بذبابة وقعت فى شراك عنكبوت لاتستطيع الخلاص منه. وجا صوت إيثان فى اغرائه وتدليله الرقيق يقترب من أذنها، أو على الأقل تصورت ذلك اذ سمعته يقول: « هل أحضر لك شرابا منشطا؟»

وخطا نحو المطبخ. وراحت جولى تذرع الحجرة الصغيرة فى تردد. وأحست بأنهما قد أصبحا فى مكان منعزل مما سبب لها بعض القلق. وشعرت أنه ليس من الائق أن تكون فى منزل إيثان رغم أنها كانت تتجول فى بيت جون تالبوت بحرية كاملة. وقدم إيثان اليها الكوب وقال: « عصير ليمون.»

ونظرت جولى بحذر الى عينيه التين أخذتا تضيقان، ورأى يدها ترتجف وهى تتناول الكوب فيما كانت رموشه القاتمة المتجعدة تظلل زرقة عينيه.

« هلا جلسنا فى الخارج؟ ربما تكونين أكثر اطمئنانا هناك.»

قالها وهو يسخر منها، لكن جولى قبلت الاقتراح. وعندما جلسا على الكرسى فوق المرج الأخضر فقدت الحادثة بينهما حرارتها. وقنع إيثان بالنظر الى البيت الذى يسيطر على المنطقة. واستغلت جولى الفرصة لتتفحصه عن

قرب. لم يكن فى نظرها الشخص نفسه الذى التقت به من قبل أو خيل اليها أنها التقت به. كانت لاتزال هناك رشاقة الحركة وذلك التناسق الغريزى الذى يميز الشخص الرياضى، والعينان الزرقاوان القاتمتان تلمعان بالبهجة، والابتسامة تظهر الخطوط الغائرة قرب فمه. ومع ذلك بدا لها وقد مال الى التراخى والكسل كأنه شخص لايأبه للحياة. واليوم رأت جولى شيئا آخر. رأت فكه يبرز فى تصميم، وأنفه الدقيق يظهر فى ارستقراطية تعبر عن الأشمئزاز، والعينين الزرقاوين تضطرمان بالغضب المتأجج، والشدة القاهرة التى تنبعث وكأنها شذى حوله. وجذب انتباهها كذلك وقاره وتصميمه الحديدي الذي ينبىء بأنه يمكن أن يكون قاسيا متحجر القلب اذا شاء. وسألها وقد أشاح بوجهه بعيدا عنها: « أما زلت ترددين فى أن تثقى بى؟»

كانت صورته تنطبع على الأشجار القاتمة أمامها، وأيقن أنها كانت تتأمل ملامحه، قالت:

« لو وضعت قرطا ذهبيا فى أذنك لبدا مظهرك كقرصان بارع.»

وبدت وهى تحاول اخفاء حمرة الاضطراب الظاهرة على وجهها.

« أقبل ذلك على أنه مديح واطراء.»

وبات يتفحصها. وحاولت جولى أن تتجنب نظراته الثاقبة. وواصل كلامه:

« للأسف، اننى رجل فقير لاأمتلك سوى المستعمرة.»

وعلقت فى ما بدا أنها تغير الموضوع:

« ان أغلى ما فى الحياة متاح للجميع بالمجان.»

«أوكد لك أنك، بطريقة أو بأخرى، تدفعين الثمن لكل شىء.»

قالها بشىء من الضحك والأنفة والاعتزاز.

« وما ثمن الحب؟» قالتها وقد أدهشتها النغمة الساخرة فى صوته.

«ان أغلى ما يملكه الرجل.. هو حريته.»

وضحكت جولى وهى لاتدرى كيف تعلق على ملاحظاته، وقالت:

« هل أنت من أولئك الرجال الساخطين الذين يصممون على البقاء دون زواج ؟ »

« وهل أنت واحدة من أولئك اللائي يعتقدن أن السعادة ينبغي أن تنتهي بالزواج ؟ »

ورفعت ذقنها فى شىء من التحدى، وأجابت:

« نعم ، ولا. يبدأ بالحب وتستمر بالزواج، وأنا أحب الشاعرية.»

« انك تتحدثين في صدق. وما هو الحب؟»

وتنشقت نفسا عميقا، ثم زفرت أنفاسها ببطء وهي تحدق بالشمس الساطعة . تغرق البيت في وهج أصفر عميق:

« لاأعرف، ولم يسبق أن جربت الحب. وماذا عنك أنت ؟»

« مرات عديدة »

كانت سطوة عينيه الساخرتين قد اتجهت اليها، وأحست بالقوة الكامنة في رجولته. وتابع: « وهذا هو السبب في كوني لاأؤمن به.»

«اذا كانت حريتك غالية لديك الى هذا الحد، لماذا ربطت نفسك بهذه المستعمرة التي قلت انها تأسرك أكثر مما تفعل أي امرأة؟»

«انك تنصتين الى ما يقوله الرجل، وهذه ميزة أخرى نادرة.»

كانت عيناه تتفحصانها بنظرة بطيئة وهما تحدقان. وواصل كلامه:

« أضناني السفر، وكنت لاأعرف شيئا عن أجدادي. وهذا المكان كان يحمل اسمي.»

« لا أفهم.»

قالتها وهي ترفع رأسها متسائلة. وضحك وقال: « سوف أطلعك.»

ووضع كوبه على الارض في الرواق المكسوة بالآجر في الغارسونييرة ، وفعلت جولي الشيء نفسه . وامتدت يده حولها ليعاونها على هبوط درج الرواق الضيق . وأحست بضيق لأنه يرفع الكلفة معها في سهولة . ولم تستطع أن ترد بالطريقة ذاتها من عدم الاكتراث . كان إيثان يحيرها . كان لغزا بالنسبة اليها ولم تستطع أن تمنع خاطرا طرأ لها عما جعله يعامل النساء بذلك الحذر . وعادت تفكر أنه ليس حذرا لكنه تحرر من الوهم . وكان طبيعيا أن الرجل له جاذبيته الكبيرة تجتمع النساء حوله كما يجتمع الذباب على عسل النحل وربما نشأ احتقاره للنساء من كثرة ألفته بهن . أرادت جولي أن تقطع الصمت الذي ساد وهما يسيران فقالت :

« اذا كنت أحسست بالحاجة الى الاستقرار فهل فكرت في أن يكون لك أطفال ؟ »

والقى عليها نظرة جعلت احشاءها تضطرب . واستقرت عيناه على شفتيها فترة أطول قليلا مما تحتمل ، وفكرت كيف يكون الحال لو أنه عانقها .

وكانت تعتقد أن له خبرة كبيرة في المغازلة . وقال:

« ولكن الأطفال ليسوا مجرد نتاج للزواج »

وكان وراء ابتسامته شيء كثير من الخبث جعل جولي تدرك أنه كان يحاول أن يصدمها . واحتفظت بهدوء صوتها في الدرجة التي لاتصل الى توبيخه أو السخرية منه . وقالت :

« من الأفضل للطفل أن يولد في ظل الزواج »

« انك تتحدثين الصواب دائما »

وتوقف ايثان وتوقفت جولي . وكانت يده تضغط على ذراعها كأنها تصدر أمرا لتبقى حيث كانت ، بينما سارهو الى شجيرة مزهرة وقطع زهرة كبيرة بيضاء قربها من أنفه ليشم عطرها قبل أن يقدمها اليها . وعندما أطبقت أصابعها على يده لتتناول الغصن الصغير لم يفلتها على الفور بل أخذ يضغط عليها لتبقى وقال في صوت أجش :

«إن الفضيلة ينبغي أن تنال المكافأة دائما »

واختلست نظرة الى رموشه من وراء نقاب رموشها وبدا أثر الابتسامة كان قد كبحها ، وأخذ يتطلع الى المنظر الممتد أمامها . وكانت ذراعه حول خصرها تدفعها الى الاقتراب من المرآة المائية العاكسة .كان هناك عمود عتيق تنتشر عليه بعض البقع أقيم وحيدا قرب الماء ، وكان نظيره يرقد في كومة من انقاض الحجارة وبقايا النقش وسط الاعشاب الطويلة . وفي المكان كان المدخل الامامي للمستعمرة ، وكان يشبه البوابات التي دخلت منها جولي ولكنه الآن قد تحول الى أطلال . وقادها إيثان الى العمود القائم في هدوء :

«هذا ما جعلني أتخذ القرار النهائي بشراء المستعمرة »

راحت جولي تشاركه التحديق في العمود حيث كانت هناك حروف باهتة محفورة بقيت رغم فعل الزمن . وكانت متآكلة لدرجة أن جولي استغرقت بعض الوقت لتقرأ الكلمة : « كاميرون » .

ونطقتها في نعومة تكاد لاتسمعها الأذن وهي تتم النظر خشية أن لاتكون كذلك . وباتت تحدق في اتجاه القصر المنتصب بكل فخامة بين أشجار البلوط الضخمة قبل أن تستدير الى إيثان ودموع الفرح تملأ عينيها :

« لقد وجدته ! »

كان صوتها خاطفا ، حادا ومفعما بالعاطفة ، وواصلت :

« لقد وجدت كاميرون هول »

وامتدت يدها تتحسس يده والسعادة تغمرها ، وقد حيرته بهجتها ونجحت في أن تجعل تلك البهجة تتدفق وقتا سمح لها أن تعطيه فكرة عن التفاصيل . وتركت ذراعيها تلتفان حوله وهي تحدق في الاسم المحفور على العمود . وأسندت رأسها الى صدره العريض تعبيرا عن سعادتها وتابعت :

« لأحد مما سألتهم سمع من قبل عن كاميرون هول . وكنت أخشى ألا أجدها على الاطلاق . والآن أجد أنها بيتك ! »

لم يكن بوسع جولي مواجهة عينيه فقد أحست بشيء من الخجل لأنها استجابت بحرية كاملة . وسألها في رقة :

« هل أشكرك أم أشكر أسلافك ؟ »

وهمست قائلة : « الاثنان »

« ابقي معي لتناول وجبة الظهيرة سويا »

وترددت ثم سمعته يقول : « جولي ! »

وأحست به ينجذب اليها وقالت : « أود أن أبقى هنا »

كانت نظرته اليها توحي بأنه ربما حاول أن يصل الى غايته وبطريقة أو بأخرى . وقال : « أما عن الطعام فانه اخر ما أفكر فيه الآن »

وسلكا الطريق الذي سلكاه من قبل عائدين الى القصر . وخطر لجولي أن المنزل الكبير كان ينظر اليها بالرضى والارتياح ، وتنشقت نفسا عميقا محاولة أن تستمتع بكل عطر وبكل صوت أحاطا بها في أسعد لحظات حياتها . فهي لم تكتشف كاميرون هول فقط ولكنها اكتشفت إيان كذلك . وكان فمها يشرق بابتسامة ذهبية كضوء الشمس ، وعندما دخلا المبنى الصغير الذي يمثل صورة طبق الاصل عن القصر وقال :

« أمن الضروري حقا أن نأكل الآن ؟ »

وقالت في تلعثم : « ينبغي أن تقول نعم »

وأطلت عيناه الزرقاوين وقد ضاقتا على وجهها الذي كان يحاول أن يحتفظ بثباته وقال : « انك على صواب بالطبع ! »

ولمست يدها ذراعه محاولة ايقافه عندما هم بالابتعاد عنها . ونظر الى القلق البادي على وجهها وقال لها في حدة :

« لاتنظري الي هكذا ، ربما لاأكسب الجولة الاخرى مع ضميري . لقد

كنت بالفعل سببا في القضاء على راحتي النفسية »

وأدركت جولي عندئذ أنه كان لايريد أن يكتفي بالمقابلات الظاهرة وعرفت كذلك أنها مالم تكن على استعداد لتحمل النتائج فان الأفضل أن تتركه يأخذ المبادرة . ولابد أن شيئا في ملامحها كان يعكس التردد الواضح في مبلغ ثقتها ، فقد رفع إيان ذقنها المطأطأة وابتسم قائلا :

«نسيت أن أخبرك أن عليك أن تساعدي في اعداد وجبة الظهيرة »

وأجابت في مرح : « انني ماهرة جدا في ذلك . اذ حصلت على دبلوم في الاقتصاد المنزلي »

« ينبغي اذن أن تستفيد من دراستك بطريقة عملية »

واتجه إيان الى الثلاجة وفتح بابها وقال :

« ما الذي تستطيع خريجة الاقتصاد المنزلي أن تصنعه من بعض الخس وبقايا اللحم وبعض البيض المسلوق وبعض ثمرات الطماطم ؟ نريد شيئا لذيذ المذاق ، فهذا كل ما لدينا من الطعام »

كانت تستطيع أن تضحك في بساطة الآن وقالت :

« اذا استطعت أن تحضر شيئا من الزيت والخل وبعض البهارات امكنني أن أعد طبق سلطة ممتازا »

وأجابها مشجعا : « انه الطبق المفضل لدي ، واتركي لي الباقي »

ولم تجد جولي وقتا لتعرف كيف استطاع إيان أن يجهز كل شيء لأنها كانت مشغولة بعملها الروتيني . وكان مذاق واحد من المتبل كفيلا بأن يثير الشهية ، واستطاع هو أن يحول الحديث بحكمة الى مشروعات لترميم المستعمرة . وكانت جولي تبدي اهتماما واضحا بالحديث ، ومع ذلك كانت بين الحين والآخر تختلس النظر الى بريق شعره الأسود أو الى التباين الحاد بين عينيه الزرقاوين وبين قامته وملامحه الآخرى . ولم تستطع أن تتابع مشروعاته كان مجرد النظر الى وجهه الوسيم كافيا لأن يجعل جولي تترنح وهي تكاد لاتصدق أنه يمكن أن ينجذب اليها . قال :

« وفي الايام الماطرة كنت أعني باكمال الخشب اللازم لأريكة على الطراز الفيكتوري ولكرسيين ينسجمان معها »

وكان خلال ذلك يحتسي شرابا يصاحب الوجبة التي يتناولها ، وواصل :

« وسوف يحتاج الأمر الى طبقة أخرى فقط من الطلاء وتكتمل الأريكة .

وتبقى فقط اعادة التنجيد وسوف يكلفني انجازه الكثير »

وصاحت جولي : « التنجيد .. إنه هوايتي »

ونظر إتيان اليها نظرة جعلتها تحمر خجلا ، فلم تكن تقصد وضعه في موقف يجعله يطلب المساعدة في هذا العمل . وقالت بسرعة : « انني ماهرة حقا في التنجيد وكنت أكسب نقودا خلال فترة الدراسة من هذا العمل »

« أنا لاأشك في قدرتك ولكنني أتذكر أنك قلت انك هنا فقط في اجازة »

وانتفخ صدرها بالبهجة اذ أدركت أنه لم يكن يركز على التنجيد قدر تركيزه على اعتزامها الرحيل . أي أنه يركز عليها هي فقالت :

« كنت قد خططت للإقامة ثلاثة أسابيع ، أو الى أن تنفذ نقودي »

ولمع في عينيه ضوء خطير وهو يقول :

«في وسعي أن أعوضك وقتك اذا كان بامكانك البقاء فترة أطول »

وضحكت ويداها تعبثان في كأس الشراب وقالت :

« ربما تندم على ذلك العرض »

وتردد ثم قال : « ألايكون مخجلا أن تضطري الى الرحيل بينما لم يمض على اكتشافك لكاميرون هول غير وقت قصير ؟ »

وفكرت جولي في صمت ثم قالت : « وأنت ؟ ماذا عنك ؟ »

كانت تفكر لماذا اختار كلماته بهذه العناية وكان من الواضح أنه لايريد أن يرتبط . وأدركت أنه لايحق لها بناء على ثقتها في مشاعرها نحوه ، أن يعتقد العكس. كان يرى أنها جذابة وكانت على ثقة من ذلك ولكنه كان رجلا .

وكانت ترى أن الحب ليس عاطفة ضرورية لدى الرجال عندما يصل الأمر الى الارتباط أو على الأقل ليس بالقدر ذاته لدى المرأة . وكان قد أخبرها بالفعل أنه لايؤمن بالحب .

وبدأت يداها تضطربان وأسرعت تشغلها بتكديس الاطباق لتحملها الى حوض الغسيل . كانت تدرك أن إتيان يلاحظها باهتمام وتركيز ولكنها لم تكن تعرف ماذا تقول : كان خارجا عن نطاق خبرتها السابقة وحرصت على أن تلتزم بالحديث حول الموضوع الذي يبقي علاقتها في منتصف الطريق وقالت : « انني سعيدة لأن كاميرون هول لم يتم ترميمها »

وكانت تحرص على أن يظل صوتها رقيقا وهي تحمل الأطباق الى الحوض وتابعت : « لأن بقاءها على ما هي يحفظ لها الطابع الذي كانت عليه منذ

زمن بعيد »

والتفتت موجهة الحديث الى إتيان لكنها وجدته واقفا بجانبها مباشرة . كان يطل عليها بحيث شعرت أنها قزم لاقيمة له . وزادت من ذلك الشعور الملامح المبهمة على وجهه في شيء من القتامة . وجاءت كلماته تثير في عينيها لمحات من الألم وهو يقول : « انك انسانه تحبين الحياة العائلية يا جولي ، وأرجو أن تعرفي أن الزواج لم يكن في يوم جزءا من مشروعاتي »

« ما الذي تنتظر مني أن أرد » ؟ »

قالت ذلك وهي تحبس دموعا كادت تقفز الى مقلتيها . وأجاب في حدة قاطعة بينما كانت عيناه تسلطان نارهما الباردة على وجهها .

« لاأريد للنفاق أن يطل برأسه القبيح »

« ومع ذلك فمن حقي أن أعرف أنني لست طفلة »

« لا . انك امرأة كاملة ، ولقد اكتشفت ذلك »

كانت فتنة الطاغية قد اسرتها تماما وبدأت تتحرك حوله في شيء من الزهو وهي تجمع بقية الأطباق . ولكن ذراعه امتدت لتسد الطريق أمامها وقال :

« وبالرغم من تعقلي الذي يناديني أن أدعك تخرجين من هنا قبل أن أوذيك فان عقلي يلح بأن أجد الأسباب لبقائك »

كان صوته عناقا هامسا وأحست جولي بركبتيها تتهاويان ، وأدركت أنها اذا تركت الخيار ليديها فستجدان أن طريقهما الى عنقه . وأ جبرت نفسها أن تستدير نحو الأطباق المتسخة في الحوض . وقال في صوت أجش :

« هل تعرفين أن كلمة جولي تعني جميلة في الفرنسية ؟ »

« وماذا عن اسم إتيان ؟ »

وعانقها قائلا : « استيفن »

فتأوهت جولي وابتعدت عنه بحيث لم يستطع أن يمنع انطلاقها من المكان . وأحست بطعنة مفاجئة في شيء من الخوف توجه الى قلبها . وانتابها فزع كبير اذ تذكرت ميشيل وغي يتحدثان عن شخص يدعى استيفن .

كان ينظر اليها بشيء من الحيرة والحذر :

« من المؤكد أن السيدة لوبلان أخبرتك من أنا . إن اسمي كاميرون ، ستيف كاميرون »

« لقد كانت تسميك إتيان »

قالتها جولي في هدوء وتذكرت ما حدثتها عنه ميشيل في تحذير اذا قالت لها : إن النار تشتعل واذا ما اقتربت من ستيف فستحترقين »
وكانت أسرة لوبلان تعتبره محجوزا لكلودين لوبلان . واختتم الحديث قائلا « لقد كانت دائما تسميني إتيان » .

٧ ـ أقوى من الريح والمطر

وبدأت بعض الأسرار تتكشف امام جولي ، فقد كان غي قد ألمح أن ستيف خصم هائل . ولم يكن ذلك إلا بعض الحقيقة عنه . وقد خبرت بنفسها كيف انهار دفاعها أمام أولى مداعباته . ولم يكن غريبا أن يكون وجود اسم كاميرون على العمود وراء شرائه المستعمرة . ونظرت جولي الى إتيان وقد أصبح الآن ستيف كاميرون وضحكت في اضطراب وقالت : « أشعر بغباء كبير ، فقد تحدث غي وميشيل عنك باسم ستيف بينما تحدثت السيدة لوبلان عن إتيان ولقد ظننت انني سأقابل رجلا يميل الى سن أكبر »
« أستطيع أن أفهم كون غي يتحدث كيفما شاء ليشوه سمعتي لديك ، ولكن لماذا تفعل ميشيل ذلك ؟ »
« ليس لغي مآرب في . أما ميشيل فأنا التي سألتها عنك وقد وصفتك لي فقط »
وابتسم ابتسامة عريضة وقال : « لاتقولي أن ميشيل تعتبرني خطرا »
وأجابت على الفور : « ليس عليها »
ومالت عيناه الزرقاوان الى القتامة وتحدث في شيء من الأغواء :
« هل أنا خطر عليك ؟ »
كانت تدرك بالفعل أن ستيف كاميرون يعني خطرا بالنسبة اليها ، ولكنها لم تكن على استعداد للبوح باحساسها وقالت :
« لا تكن سخيفا فأنا واثقة من أنك لا يمكن أن تأذيني »
وأخذت تجمع بقية الأطباق وتابعت :
« هل أخبرتك السيدة لوبلان أن كلودين ستصل يوم السبت المقبل ؟ »
« نعم . ذكرت ذلك »
قال ذلك وهو يتناول الأطباق من يدها ليضعها في الحوض . وأضاف :
« أتركيها وتعالي شاهدي الأثاث الذي كدت أنتهي منه »

وانضغطت شفتاها عندما حول مجرى الحديث عن حياته الشخصية وعن علاقاته بكلودين . وحدثت نفسها : وقد تنقصني الخبرة ومع ذلك فلست فتاة ريفية خجولة تنسحب بهذه السهولة .

ثم رفعت رأسها في تحد وكان يرى التصميم في عينيها وهو يصطحبها خارج الغارسونييره قائله : « أظن أن هناك علاقة ما بينك وبين كلودين ؟ »

كانت تظن أنها قد فاجأته ولكنه أجاب ببساطة :

« إن لكلودين الفضل في وجودي هنا »

« ماذا تعني ؟ »

« لقد تقابلنا في نيوأورليانز ودعتني الى زيارة والديها فرافقتها الى منزلها وجاءت بي الى هنا لنقضي يوما وكانت ترسم لوحة للمستعمرة التي اشتريتها فيما بعد »

ولم تستطع أن تسأله ما كان قد اشترى المستعمرة بسبب كلودين . وطرحت عليه سؤالا آخر : « ماذا تعمل ؟ »

« أعيش . أزرع قصب السكر ويدر علي دخلا أسدد به رهن العقار وأدخل بعض التحسينات على القصر . وهناك حديقة خضراوات تنتج طوال السنة ، ولدي بقرة مدرة للبن تعطيني عجلا صغيرا للذبح كل عام . وليست لدي رغبة في الثروة أو الجاه . هل تشعرين الإحباط ؟ »

« كلا . ولكنك من النوع الذي يمكن أن ينجح في أي شيء »

وتجنب التعليق في لباقة وفتح بابا كبيرا يؤدي الى مبنى فعل فيه الطقس فعله وهو يقول : « الأثاث هنا »

وحصر الحديث حول الأثاث وكانت أسئلتها تدل على أن لديه معلومات لابأس بها . ووجدت جولي أن في وسعها الأجابة بطريقة تدل على الفهم . وخرجا من المبنى الصغير ، وأحست جولي بأن شعور الألفة بينهما قد أخذ يتضاءل . كان ستيف مهذبا وساحرا ومع ذلك بدا وكأنه لايحتفظ بأية مشاعر شخصية تجاهها . وكانت تحس بالسعادة في صحبته . وخطر لها أن تمد زراعيها نحوه لتنعم من جديد بما تقاسماه فيه من السعادة .

كان القصر يرتفع في فخامة مطلا على الطبيعة بحيث يرى من أية بقعة يسيران فيها . وعندما توقفا بجوار غصن يتدلى من شجرة بلوط ضخمة نظرت اليه من جديد بينما أخذت أصابعها تعبث بباقة من الطحالب وتنهدت وسألت

« أتظن أنهم كانوا يعيشون حقا في ترف وإسراف كما سمعنا ؟ »

وأجاب ستيف :

« لم تكن حياتهم كلها نوما ولهوا وإلا لما استطاع مالك المستعمرة أن يحتفظ بها للعام التالي . كانوا يديرون أعمالا كثيرة في مستعمراتهم لكي يحصلوا على عائد مربح ، ولو فشل المحصول عامين متواليين لفقد الواحد منهم عمله ، واذا نجح لفصول عدة متوالية فانه يصبح امبراطورا صغيرا »

« ملك السكر ! »

وابتسمت ابتسامة أظهرت بعض الخطوط الغائرة على وجهها :

« كان ملاك المستعمرات قليلين ، ولم يزد عدد من كان يمتلك الرقيق عن ثلث السكان في لويزيانا ذلك الوقت . ولكن الأبهة والفخامة تشدان الانتباه أكثر من صراعات الفقراء التي لاطائل وراءها »

« انك تجعلني أحس بالذنب لأنني أعبر عن إعجابي بحياة ملاك المستعمرات »

وقال مبتسما : « مازلت شابة وليس هناك شيء أكثر شاعرية من أن يتخيل الانسان أيام المستعمرات الذهبية ، فالذين أقاموا كانوا أشخاصا صارمين بنوا امبراطورياتهم ونحتوها من القفار البرية في المناطق شبه الاستوائية واستمتعوا بثمار كدحهم . وكان استخدام الرقيق بشكل أو بآخر شائعا في العالم أجمع في ذلك العصر »

« نعم ، كان الناس في انكلترا يعانون من العمل في مناجم الفحم ومن تشغيل الصبية الصغار ، وكانت روسيا القيصرية تعاني من رقيق الأرض وكان النبلاء في بلدان أخرى يمارسون صورا أخرى من الاستغلال »

« لقد ابتعدنا عن سؤالك حول ما اذا ملاك المستعمرات كانوا يصنعون حقا مقابض الأبواب في بيوتهم من الفضة والذهب ويلقون بالدولارات الفضية على الزبد خلف القارب النهري ؟ »

وأومأت جولي وقالت : « أستطيع أن أتخيل مدى صدق ذلك ! »

« يمكنك أن تثقي من أن القصص حقيقية مهما بدا فيها من المبالغة . لقد كانوا مثلا عندما يصل ضيف الى البيت يوقفون الساعات طيلة وجوده بينهم ابتهاجا بالمناسبة . وكان التفوق على الآخرين ليس من مظاهر الثراء والغنى داخل البيوت فقط ولكن في مظاهر الكرم لعبة يحرص عليها ملاك

المستعمرات ، فعندما كان أحد العبيد يقدم مائدة الافطار لضيفه من النساء في الصباح كان يضع وردة متفتحة على الوسادة واذا لم تستيقظ كان يضعها تحت أنفها حتى تصحو وعندئذ يقدم لها فنجانا من القهوة لينشطها فتظن الضيفة أن الوردة قد أعادت الى روحها النشاط »

« يالها من فكرة جميلة »

« وهناك واحدة من أطرف القصص عن تبذير ملاك المستعمرات وقعت قريبا من هنا . أتحبين أن تسمعيها ؟ »

وأومأت أنها تتحمس لذلك فأضاف : « كان المسيو تشارلز دوراند يمتلك مستعمرة تطل على نهر تشيه على بعد أميال قليلة من سانت مارتنفيل ، وكان نابضا بالحيوية رزق من زوجته الأولى قبل أن تموت اثنى عشر طفلا وأقسم فوق مقبرتها على أنه لن يتزوج ثانية . ولكنه تزوج بالفعل قبل أن ينقضي العام وأراد أن يعدل مع امرأته الثانية فرزق منها اثنى عشر طفلا كذلك . وكان دوراند رجلا غير عادي . وعندما قبلت اثنتان من بناته الزواج من شابين من الأسر المحلية في لويزيانا توقع السكان المحليون أن يروا مظاهر البذخ في حفل الزفاف المذدوج ، فارسل عبيده الى الغابات القريبة ليصطادوا عناكب كبيرة . وأطلق هذه العناكب قبل الزفاف بأيام قليلة في طريق يؤدي الى قصر تحف به الأشجار من جانبيه . وسرعان ما تحولت الأشجار الى شبكة من النسيج المثقب . وفي صباح يوم الزفاف خرج العبيد ومعهم منافخ كبيرة ومسحوق من الذهب والفضة راحوا ينثرون فوق نسيج العنكبوت ، وبذلك تحول الطريق الى مظلة ذات غطاء متلألىء فوق رؤوس المحتفلين بالزواج »

« وهل هذا معقول ؟ »

قالتها وهي تضحك في شيء من عدم التصديق . وأضافت :

« ولكن ماذا كان يحدث لو أمطرت الدنيا وعصفت الرياح ؟ ! »

« لايجرؤ المطر ولا الرياح على ذلك في يوم يتخذ فيه المسيو دوراند الترتيبات الخاصة بزواج ابنته »

قال ذلك ثم سألها في رقة :

« هل تعلمين أن الساعة قد تجاوزت الثالثة بل قاربت الرابعة ؟ »

والتفتت نحوه في دهشة فيما أحست بشيء من الحرج والإرتباك . لم تكن تتخيل أن الوقت قد مضى بمثل تلك السرعة وتعثرت وهي تبحث عن

الكلمات : « من الأفضل .. أن .. أن أذ .. أذهب »

وراحت تنفض الجونلة في شيء من العصبية وهي تحاول أن تخفي وجهها من عينيه اللتين كانتا تستمتعان بما يحدث . وحاولت أن تسلك طريقها الى السيارة لكنه أمسك بمعصمها وقهقه ضاحكا وهو يجذبها اليه :

« لايضايقني أن تبقي معي طوال الليل ، لكنني لاأود أن تضعني جوزفين في القائمة السوداء »

وزاد ارتباكها عن ذي قبل وقالت :

« أعرف أنها تنتظر عودتي لتناول العشاء معا »

واكملت : « انني مسرورة كونك ذكرتني بمرور الوقت »

« حقا ؟ ! »

وشبك أصابعه في أصابعها وهو يقول : « دعيني ارافقك الى السيارة »

وعندما اطمأن ستيف كاميرون بعد ذلك بدقائق الى أنها قد جلست في سلام خلف عجلة القيادة في الفولكس واغن الحمراء انحنى نحوها وعانقها قائلا : « لك أن تصدقيني هذه المرة اذا ما قلت لك : الى اللقاء يا جولي ! » ونطق كلمتي الى اللقاء بالفرنسية .. »

رجع ستيف الى البوابة حيث كان كلب الرعي الألماني جالسا وقد ارتفعت أذناه بينما كانت عيناه تراقبان ما يحدث . ورفعت جولي يدها محية ورجعت بالسيارة الى الوراء في المدخل الترابي . وعندما أخذت وجهتها على الطريق الرئيسي أدركت أن ستيف لم يذكر شيئا عن اللقاء التالي بينهما . لكن الدفء كان يحيط قلبها كان يعكس قوله أنه لابد سيراها ثانية .

وعندما دخلت منزل لوبلان بدأت تحس بصدى مقابلتها مع ستيف كاميرون المعروف باسم إتيان . وبدأت السيدة لوبلان باستفسارها عن مدى استمتاعها بفترة مابعد الظهيرة مع إتيان . أما غي فوقف في المدخل يراقب في اكتئاب ردود فعل جولي على تلك الزيارة . وحاولت أن تخفف من ابتهاجها وهي تقول أن المعبد هو كاميرون هول الذي تبحث عنه . وظنت السيدة لوبلان أن تأخرها هناك كان لذلك السبب وانتهزت أول فرصة لتصعد الى حجرتها فتستعيد نشاطها . وتبعها غي الى الدرج وهو يقول :

« ولكن لم تذكري شيئا عن انطباعاتك عن الفارس ستيف كاميرون ؟ »

وازدادت قبضتها على مستند الدرج قبل أن تأخذ أنفاسها وقالت :

« كان في وسعك أن تحدثني عن وسامته الجذابة . ثم ان ستيف وإتيان شخص واحد . كنت أظن أنني سألتقي برجل فرنسي كبير في السن »

« وهل حدث لك ذلك ؟ »

« حدث لي ماذا ؟ »

« هل أسرتك وسامته ؟ »

وأجابت في غموض : « لقد صدمت . ولم أدرك في أول الأمر أنه ستيف الذي حدثتني عنه ، بل لم أكن أعرف أن ستيف في الفرنسية تعني إتيان »

كان غي ينظر اليها بطريقة تثير فيها بعض الارتباك . فقد بدا وكأنه يرى آثار العناق في أحاسيسها ، وأضاف يسألها وهي تتجه الى أعلى الدرج :

« هل كنت على صواب فيما حدثتك عنه ؟ »

وأحست بشيء من الضيق لسؤاله المتطفل واستدارت لتواجهه :

« ماذا تريد يا غي ؟ أتريد أن تستكشف ما اذا كان قد حاول اغوائي ؟ »

وهمهم غي وهو يضرب الحاجز الخشبي بقبضته :

« لم أشك لحظة أن رجلا آخر يستطيع أن يفعل بك ذلك »

وتنهدت في غضب وقالت :

«أوه .. هكذا يا غي هل تصدق حقا ما قلته الآن ؟ »

« كلا ، فان ستيف من الذكاء بحيث لايجازف في الكشف عن نيته في المرة الأولى ، ولكنني على ثقة من أنه لابد أن يكون قد أسر بجمالك »

« لقد نشأت في مزرعة وأعرف قدرا لابأس به عن الطيور الوديعة وعن النمل الذي يلسع . وبعد ثلاث سنوات قضيتها في الكلية أستطيع أن أتصرف في موقف أو آخر دون أن يؤثر في عناق عابر »

كانت تلك أكذوبة صريحة ولكن جولي كانت في حالة من الغضب جعلتها لاتكترث . وابتسم ابتسامة تعكس السخرية والاعتداد بالنفس قائلا :

« اذا فقد كنت على صواب . بدأ الحصار بالفعل »

« ولكن خطوطي الدفاعية لم تنكسر ولن تنكسر »

وخرج صوته فيما يشبه الرجاء وهو يقول :

« اسمعي يا جولي ، إنني أحاول فقط أن أحذرك حتى لايلحق بك الضرر ، لقد رأيت ستيف يغوي الفتيات من قبل . إنه يلجأ الى المغازلة بعينيه الواسعتين الزرقاوين . ويبتسم حتى تنهار الفتاة أمام نظراته »

ولم تفوت جولي فرصة السخرية منه وقالت :

« كنت أظن أن من يفعل ذلك هو أنت »

وتنشقت أنفاسها بعمق وقالت :

« أفهم ما تحاول أن توضحه ولكنني راشدة وأستطيع أن أكون وجهة نظري وأصدر أحكامي . وكل ما خرجت به أن ستيف شخص جذاب »

ولم تعطي لغي فرصة الرد والتفتت وصعدت الدرج في سرعة ، ولكنه كان مصرا على أن تكون كلمته الأخيرة : « وكذلك ثعبان الكوبرا ! »

لم يبذل ستيف أية محاولة للإتصال بها يوم الجمعة التالي وأحست بشيء من الاحتقار لنفسها وهي تتسكع في سانت مارتنفيل ذلك اليوم ثم تعود الى بيت لوبلان بين وقت وآخر على أمل أن يكون ستيف قد أتصل بها رغم أنها لم تسأل صراحة اذا كان قد ترك رسالة خاصة أم لا . ولم تكن واثقة من مدى إعجابه بها الى الدرجة التي تجعله يفعل ذلك . كان كل ما تحرص عليه هو أن تهيء نفسها لتلبي الدعوة .

وأشرق صباح السبت وكان كل أمل لديها بأن يتصل بها قد اختفى مع ظلمة الليل السابق . كانت تحاول أن تقنع نفسها أن ما ذكره غي عنه كان غير حقيقي . ورغم ذلك بقي هذا الخاطر يلح عليها في صورة شكوك تؤدي بأوهام السعادة التي تحلم بها . وعندما اقترح غي أن يمضيا اليوم معا قبلت جولي اقتراحه في بهجة . ولحسن حظها كان هناك جمع من أصدقاء غي ولم تكن هناك فرصة ليطرح من جديد أسئلة حول زيارتها لستيف . كان البرنامج يتضمن جولات عدة في التنس يتبعها قضاء فترة مابعد الظهيرة الى جوار حوض السباحة . وكان للمجهود الجسدي وللإسترخاء الذي يتبعه تحت أشعة الشمس الدافئة أثر كبير في إزالة التوتر عن جولي . وعندما عادت الى منزل أسرة لوبلان في وقت متأخر من ذلك المساء كانت تحس بالانتعاش الكامل . لم تحاول تغيير رداء البحر البكيني بزهوره الحمراء ، وأقنعت نفسها أن البلوزة الحمراء ذات الأكمام الطويلة كانت تكفي لتغطية الأجزاء التي يكشف عنها رداء البحر . كانت الأسرة كلها تبدو في حالة من المرح وكان من الطبيعي أن تشارك جولي في ذلك .

وأسرعت ميشيل الى الطابق العلوي لتأخذ حماما وتستعد للقاء بأوجين . وتلقى السيد لوبلان مكالمة هاتفية فيما انشغلت السيدة لوبلان باعداد العشاء

وذهب غي يبحث عن احدى الصحف ليطلع على البرامج الاستعراضية التي كانت تعرض في لافاييت لعله يختار هو وجولي البرنامج الذي يريدان مشاهدته تلك الأمسية . وبقيت جولي وحدها في الحجرة التي كانت تعج منذ دقائق بأصوات البهجة . وكانت جولي الوحيدة التي رأت سيارة تصعد الى ممر السيارات ثم تتوقف قرب الباب الخلفي ، وشدها حب الاستطلاع التافه الى النافذة لترى من القادم الجديد . ورأت فتاة في بنطلون أبيض ضيق وبلوزة حمراء تكشف عن جزء كبير من صدرها . تخرج من مقعد السائق مسرعة وعلى رأسها عصابة صفراء منقوشة تضم الكتل الطويلة من الشعر الأسود بعيدا عن وجهها لتجعله يتهدل كالشلال على ظهرها .

وتحركت الفتاة برشاقة ماكرة تجاه مؤخرة السيارة وشفتاها الحمراوان تتحركان في سعادة غامرة ولم يكن صوتها مسموعا . وشحب وجه جولي عندما خرج من الجانب المقابل من السيارة ستيف وسار هو الآخر باتجاه مؤخرة السيارة . وثارت الذكريات . كانت كلودين آتية الى البيت وهي التي تعتبر ستيف كاميرون ملكا خاصا لها . وكان ستيف معها يخرج الحقائب والأمتعة من مؤخرة السيارة . ووقفت جولي تراقب تبادل الابتسامات وهي تحس بالخيانة بينما كلودين تنظم الحقائب والأمتعة . وبدا ستيف وكأنه الصبي المكلف بحمل الأمتعة في الفندق ينقل بعضها في يديه وبعضها تحت ذراعيه . كانت جولي على استعداد لترك النافذة ، ولكن المشهد لم يكن قد إكتمل بعد . ورأت كلودين تتحرك لتقف اقرب الى ستيف وأحست جولي بشيء من الغثيان المؤلم تحرك في داخلها بعنف ولم تر أكثر ، فقد حجبت الدموع عينيها . وتركت النافذة على عجل وجففت عينيها بمؤخرة راحة يدها وقررت ألا تتيح له الفرصة ليراها وهي تبكي . وحمدت الله أنه أتاح لها الفرصة لرؤية ذلك المشهد ، فلم يعد هناك أدنى شك في أن آمالها كانت بلهاء .

وأسرعت الى الردهة حتى لاتكون الشخص الوحيد في الحجرة عندما تدخل كلودين ومعها ستيف . ووجدت غي في غرفة الطعام منحنيا على الصحيفة . وتظاهرت بشيء مناقض تماما لما كان يعتمل فى داخلها. وسألته:

« هل وجدت شيئا مثيرا؟»

« تعالى وانظرى، لعل شيئا يثير اهتمامك.»

كانت جولى تتفحص الصحيفة فى اهتمام عندما سمع صوت ضحك

وأبواب تفتح معلنة وصول كلودين وستيف. وتنهد غى ونظر الى جولى فى استسلام قائلا: « عادت ملكة النحل الى الخلية.»

وأخذ يد جولى على مضض كبير ليتجه بها الى الردهة. ورغم أن غى لم يبد حماسة واضحة فان حماسة والديه كانت وافرة وهما يرحبان بعودة ابنتهما. ووقف غى وجولى الى الخلف ينتظران حتى تنتهى دهشة اللقاء. وأحست جولى بارتياح لانها كسبت بضع دقائق قبل أن تقف أمام ستيف وجها لوجه. وكان غى قد أحكم قبضة يده على يدها وجذبها لتلتصق به فى اللحظة التى لمح فيها ستيف. وأحست جولى بارتياح كبير لذلك.

كانت جولى على ثقة كبيرة من أنهما لم يحدثا ما يثير الاهتمام. ومع ذلك التفت ستيف وراءه وكأنه استفاد من حاسة سادسة لديه. وبدا وجهه بلا انفعال رغم أنه كان يخفي بعض الفكاهة تكمن فى أعماق عينيه الزرقاوين فى اخضرار وهو يحدق بأتجاه يد جولى التى أمسك بها غى فى أحكام. وسرعان ما طفت على رقبتها ومضة من الخجل لم تكن تريد أن تبوح بها، ولكنها رغم ذلك استجابت لنظراته بالجرأة وكأنها تتحداه أن يعلق. ولكنه فضل أن يترك عينيه تتفحصان زيها الرقيق مما حملها على الاحساس بانها شبه عارية.

وقبل أن تجد جولى الفرصة لتعبر عن ضيقها من الطريقة التى كانت عينا ستيف تحدقان بها نحوها، جاء اميل لوبلان يحييه بالفرنسية. واستمر الحديث بينهما بعض الوقت فى اللغة ذاتها.

« هل هذه فتاتك الجديدة يا غى .»

كان للسؤال وقع حاد جعل جولى تحول نظراتها بقسوة من ستيف الى الفتاة التى تواجهها. وكانت عيناها بلونهما البنى الشديد القتامة تتفحصانها باحتقار زائد. وكانت ثقة جولى بنفسها قد انكمشت عندما نظرت الى كلودين ذات الجمال الأخاذ. كانت لها نظرات ساحرة وكانت ملامحها خالية من أى عيب كأنها صنعت من العاج فى تباين مع شعرها الأسود وحاجبيها الأسودين ورموشها الطويلة التى لم تكن لمواد التجميل أثر فى جمالها الطبيعى. وكانت أقراط ذهبية كبيرة تتدلى من أذنيها الصغيرتين لتضفى عليها مظهرا غريبا كمظهر الغجر. وبدت كلودين وكأنها نبات استوائى له ازهار وأشكال ساحرة، بينما بدت جولى وكأنها زهرة من ازهار

الربيع تنتصب الى جوارها.

وسمعت غي يشرح بشكل عام ظروف وجودها كضيفة دون أن يذكر أنها كانت تدفع ثمن اقامتها. ورغم كونه حاول أن يضفي أهمية خاصة على شخصيتها فانه لم يشبع احساسها بذاتها. وزاد من صعوبة الموقف أن كلودين تركت جولي وانصرفت عنها كما لو كانت لاتستحق اهتمامها، واتجهت الى ستيف مما جعل جولي تشد بقوة على يد غي الذى نظر اليها في رفق واعتذار.

وهمست قائلة: « سوف أنصرف الى تغيير ملابسي.»

وكانت قد لمحت في زاوية عينيها كيف كان ستيف ينصت الى كلودين في اهتمام كامل. وقال غي في هدوء وحزم: «سوف نتناول الطعام في مكان ما»

ولم تستطع جولي أن تمنع ابتسامة الرضى التي ارتسمت على فمها بينما بدأت كلودين توجه اهتمامها فجأة اليها وقد أحست بعزمها على الخروج وقالت: «هل تخرجان معا الى مكان ما؟»

ولكن جولي تركت لغي أن يوضح الموقف. وتخلصت من نظرة ستيف التي كانت منصبة عليها.

٨ – عينان ضد الوقار

عندما عاد غي وجولي في ساعة متأخرة من تلك الأمسية، كان السكون يخيم على المنزل، ولم يكن هناك سبيل لاكتشاف ما اذا كانت كلودين في البيت أم خرجت مع ستيف. ولم تكن جولي عازمة على التحدث الى غي في ما يدور في تفكيرها. وبعد أداء الصلاة في الكنيسة صباح الأحد، أعد غي رحلة تشارك فيها ميشيل وصديقها ليذهب الأربعة في السيارة الى المنطقة الشهيرة التي تنسب الى القرصان جان لافاييت، وهي جزيرة صغيرة تقع في خليج باراتيريا. وكانت كلودين ماتزال في الفراش ولم يكن ثمة مجال لاصطحابها في الرحلة.

وفضلت جولي صباح الاثنين أن تذهب الى مكان بعيد. واختارت رحلة الى باتون روج. وسلكت طريقا عاما رئيسيا يقوم على أعمدة من الاسمنت المسلح عابرا مساحة تمتد نحو عشرين ميلا من المستنقعات. وخلال عودتها الى بيت لوبلان تلك الأمسية، لم تكن كلودين بين الموجودين في البيت ولكنها لم تسأل عن مكانها وظنت أنها ربما مع ستيف. كان النوم قد خانها معظم الليل ، لذلك استيقظت متأخرة في الصباح التالي ، وكادت تتراجع عن الدخول الى المطبخ عندما رأت كلودين جالسة مع أمها الى المائدة . ولكنها تصرفت بشكل طبيعي وصبت فنجانا من القهوة وجلست معها الى المائدة وهي تتظاهر بأنها لاتكترث لشيء . وابتسمت ابتسامة مشرقة لكلودين وللسيدة لوبلان وقالت : « صباح الخير »

واكتفت الأولى بالنظر اليها بينما ردت السيدة لوبلان التحية :« أين تذهبين اليوم يا جولي ؟ لقد كنت أحدث كلودين كي ترافقك في جولتك اليوم »

وأجابت على عجل وقد لاحظت ضيقا على وجه كلودين :

« لاداعي لذلك . كنت أفكر في الذهاب الى جزيرة جيفرسون لمشاهدة الحدائق هناك ، ولكنني أحس بشيء من التراخي يمنعني عن ذلك اليوم . ولاأريد أن أفسد على كلودين برنامجها »

« كنت أفكر في الذهاب الى الريف اليوم لأرسم بعض المناظر ، فقد ربحت كثيرا من اللوحات التي رسمتها عن مستعمرة ستيف بالألوان المائية .

وكانت الإبتسامة الغامضة التي ومضت على الشفتين القرمزيتين تقول بوضوح تام أن كلودين كانت لديها أمور أكثر أهمية ينبغي أن تقوم بها ، بل هي أهم بكثير من مجرد اصطحاب جولي والعمل كمرشدة لها . بينما خطر لجولي في شيء من الحقد أن كلودين قد تمضي بعض الوقت في بيت ستيف . وعلقت جولي في شيء من الاطراء بعدما حبست البرود الذي كانت تود أن ترد به وقالت :

« لقد رأيت بعض لوحاتك وفي رأيي أنها جميلة تماما »

وابتسمت كلودين في عذوبة للمرة الثانية قائلة :

« إن معظمها معد للتوزيع بسعر مقبول في السوق . وقليليون هم الذين يهتمون بالأعمال الفنية الحقيقية . وقليليون كذلك الذين يفهمونها »

وأحست جولي أن موقفها كشخص عادي يقدر العمل الفني واكتفت أن تحتسي قهوتها وهي تبتسم . وقالت السيدة لوبلان بطريقتها في الثرثرة :

«هل قلت لك يا كلودين أن جولي اكتشفت أن مستعمرة إتيان كانت في يوم من الأيام ملكا لأحد جداتها »

« لا ، لم تذكري لي شيئا عن ذلك . إنه أمر مثير ! »

ونظرت بعينيها القاتمتين الى جولي قائلة :

« وكيف اكتشفت ذلك ؟ »

وأحست جولي أن عليها أن تقوم بالشرح في روية وقالت :

« في أحد أيام الاسبوع الماضي الثلاثاء كما أظن دعاني السيد كاميرون الى مشاهدة مستعمرته ، ولقد جعلني أشاهد الأعمدة القائمة على الرافد واسم كاميرون منقوش عليها . وكان سيلفي كاميرون ، وقد سميت هذه المستعمرة كاميرون هول »

« هل كانت قريبتك امريكية ؟ »

كانت جولي تعرف أن الفرنسيين المقيمين في لويزيانا فترة ما قبل الحرب

الأهلية كانوا يعتبرون الاميركيين برابرة غير متمدنين . ولم يكن يسمح لسكان الولايات الشمالية اليانكي بالانتقال الى الجنوب إلا في أضيق الحدود حتى ولو كانوا أصلا من منطقة جنوب ماسون ، ديكسون . وكان في لهجة كلودين وهي تسأل شيء من الاستعلاء .

« ألحق أنها كانت سليلة أسرة فرنسية عريقة في القدم تنحدر من عائلة كريبولي ، وكان أبوها روبرت كاميرون ابنا لأحد المهاجرين الاسكتلنديين ، قتل في الحرب الأهلية دفاعا عن الجنوب ، ولقد تزوجت أمها ثانية بعد الحرب بسنوات قليلة وكان زوجها الثاني ضابطا في الجيش الشمالي . وكانت كاميرون هول بيعت سدادا للضرائب »

وهمهمت كلودين في وهن : « إنها غاية في الاثارة »

وعلقت السيدة لوبلان في ابتسام :

« إنها حقا مجرد صدفة أن تعود ملكية كاميرون هول الى واحد من أسرة كاميرون »

وسحقت كلودين بقايا السيكارة في المنفضة وقالت :

« أنا شخصيا كنت أتمنى ألا يشتري ستيف هذه المستعمرة . كان وضعه المادي سيتغير كثيرا الى الأحسن لو هو لم يشتريها »

واعترضت الأم قائلة : « كيف تقولين ذلك ؟ إنه مكان جميل ! »

وعلقت كلودين : « لن يستطيع اصلاحها إلا مصرف كبير مثل المصرف الوطني . عل لديك فكرة عن المبالغ المطلوبة لإصلاحها ؟ كان بإمكان ستيف أن يحتفظ بشيء من الثروة لو أنه لم يهدر النقود في اصلاح ذلك المكان كي يجعله صالحا للسكن . ونفقات صيانة مثل هذا المكان لاتحتمل »

وأحست جولي بشيء من الاستثارة لسماعها رأي كلودين في المستعمرات ، واقترحت في هدوء :

« أعتقد إن بإمكانه جعلها مزارا للسياح بعد أن يكمل ترميمها وبذلك يستعيد بعض ما أنفقه عليها »

وأجابت كلودين بطريقة لاذعة : « ما أكثر المستعمرات القديمة في الجنوب ! والمعبد أو كاميرون هول أو أي أسم تريدين أن تسميها به لاتتفوق على العشرات غيرها في شيء ، بل أقول إن مستعمرة كاميرون هول لايمكن أن ينسب اليها أي معلم من المعالم التي تركها جيش الاتحاد وتجذب الزوار اليه »

واحتفظت جولي بهدوء في صوتها وهي تقول :
« أعتقد أنك لابد أن تقفي الى جانب الرأي القائل بترميمها »
ولمع خبث في عيني كلودين القاتمتين وقالت :
« أنا لست حريصة على أن أعيش الحياة التقليدية التي يعيشها الفنان ولاأريد أن أقبع في مرسم . إنني أريد بيتا حديثا أو شقة جميلة ، فهي أفضل بكثير من مستعمرة لم يكتمل ترميمها وتنتشر فيها البرودة والرطوبة »
واعترضت السيدة لوبيلان فرفعت يديها في الهواء وقالت :
« إنها تتحدث هكذا دائما وتترك عقلها يتحكم في عواطفها »
ونهضت كلودين عن المائدة وحملت فنجانها الخالي الى الحوض قائلة :
« إن قرص الاسبيرين يعالج الصداع ياماما . ولكن بالله ماالذي يعالج وجع القلب ؟ »
كانت جولي حريصة على أن تسمع الاجابة عن هذا السؤال الذي لم تكن كلودين تعرف له جوابا . فقد تحتاج هي الى العلاج الذي لم تستطع أن تتخلص من ذكرى ستيفن كاميرون بسرعة . وما أن خرجت كلودين من المطبخ حتى انشغلت أمها بنشاط كبير . واحتست جولي قهوتها وعادت الى حجرتها محاولة أن تضع خطة لليوم الطويل المقبل عليها .
كانت الشمس تغرق الفراش وقد نثرت أشعتها الذهبية على الجسد النائم ، وأخذ طائر يردد صيحة اليقظة الصحو من خارج النافذة مما جعل جولي تتململ بعض الشيء . وراح جفناها يتقبضان في وهج الشمس الذي حاول أن يكتسح استغراقها في النوم ، وأحست بعطر زهري يداعب أنفها لعلها تستيقظ . وتنهدت وحاولت أن تختلس النظر وبدأت تدنو من وسادتها التماسا للدفء لحظات أخرى قليلة ولكن تلك النظرات القصيرة جعلتها ترى شيئا لم تكن تتوقع أن تراه . وغضن جبهتها خط واضح وهي تفتح عينيها في اتساع وتحدق في شك الى الوسادة المجاورة لرأسها . كانت هناك وردة متفتحة تستقر على غطاء الوسادة الأبيض وحمرتها القانية تتباين في حدة مع اللون الأبيض .
وأخرجت يدها في تثاقل من أسفل الفراش وهي تتوقع أن تختفي الوردة من أمام عينيها . ولمست أصابعها القرع الدقيق الذي يحملها ، وادركت أنها الحقيقة . ونهضت من الفراش فجأة لتغرق أنفها في وريقاتها الأرجوانية الضاربة الى الحمرة .

كان هناك خاطران يلحان عليها في آن واحد : حديث ستيف عن العادة القديمة لدى ملاك المستعمرات في ايقاظ الضيوف بعطر وردة ، ودخول شخص غريب الى الحجرة . وامتدت يدها تشد الأغطية التي كانت قد تدلت لتغطي البيجامة الرقيقة التي ترتديها . ولمحت شبحا في المنطقة القريبة من النافذة .
كان ستيف يتفحصها في صمت ، وكانت يداه تضربان على فمه . وسقطت يداه الى ذراعي الكرسي ، وهو ينهض على قدميه وتنشقت أنفاسها ، وهي تحس بالحاجة الشديدة الى التنفس . وسألته :
« كيف دخلت الى هنا ؟ »
« من الباب »
كان يستند الى عمود السرير ولم يبد عليه أي شعور بتأنيب الضمير للطريقة التي كان ينظر بها اليها . ولاللموقف الحرج الذي كانت تعانيه وقالت :
« كيف تدخل الى هذا المكان ؟ ماذا لو اكتشفت ذلك السيدة لوبلان ؟ »
« إنها ليست هنا ، ولقد وجدت ورقة تركتها لك في الطابق الأرضي ويبدو أنها ستقضي فترة الصباح كلها في الخارج »
« ولكن لماذا أنت هنا ؟ »
كانت جولي قد بدأت تحس بالسخف شيئا ما وجذبت الأغطية باليد الأخرى وأجاب : « لقد أحسست بأنك تحاولين أن تتجنبيني »
« هذا تفكير خاطيء »
ولم تستطع جولي أن تواجه عينيه . « إنني سعيد لسماع ذلك »
وشاعت في وجهها ابتسامة لها سحر آسر وتابع يقول :
« إنك تبدين جذابة للغاية كأول شيء في الصباح . هل تعرفين ذلك ؟ إن كل ما فيك رقيق »
واحمرت خجلا بشكل عامر ، وهي لاتعرف كيف تجيب على ذلك التعليق . ولم تجد ابتسامة ستيف الرقيقة العريضة في مساعدتها على الرد بل أحست بالغضب عندما وجدته يعتبر الموقف مضحكا .
« والآن .. وقد اقتنعت بأنني لاأحاول أن أتجنبك ، أرى أنه من الأفضل أن تترك غرفة نومي »
وجعلته يلمس شيئا من غضبها « لماذا ؟ هل تخشين أن أتسلق اليك ؟ »
وهمست قائلة : « انك لاتجروء على ذلك »

وأجابت في صوت واهن : « رحيما »

وتوقف ستيف لحظة قبل أن يدير محرك السيارة ونظر اليها في صمت ثم قال : « اذا وعدت بألا تتركي هاتين العينين البنيتين الناعمتين تسحراتني . إنهما جديرتان بأن تفقدا أي رجل مابقى لديه من الإتزان »

والتفتت جولي بعيدا وهي حائرة في ما اذا كن يعرف مدى خطورة عينيه الزرقاوين القاتمتين وأنها كم تمنت أن تغرق نفسها في أعماقها . ومع ذلك كانت تشعر بشيء من الاستثارة اذ اكتشفت أن فيها شيئا يثير أرقة . ولكن هل كان ذلك الشيء سلاحا فعالا أم مركزا للهجوم ؟ وهي تعلم أن خطوطها الدفاعية واهية . وعندما استدار ستيف بالسيارة نحو الاتجاه المضاد والمقابل لسوق مدينة مارتنفيل نظرت اليه جولي في استغراب وقالت : « الى أين ؟ »

وغض النظر عن الطريق لحظة لينظر اليها مطمئنا وقائلا : « الى نيو ايبيريا . أعتقد أننا سنجد هناك تشكيلة أكبر من أقمشة التنجيد لنختار منها الى جانب ماتتمتع به من مناظر جميلة . هل ذهبت الى هناك من قبل ؟ »

وأجابت وهي تذكر كيف كانت رحلتها السابقة ثقيلة بعد الحديث غير المريح مع كلودين في ذلك الصباح : « لقد ذهبت الى مستعمرة تسمى الاشباح على نهر تشيه . كنت هناك بالأمس »

« وهل أعجبك المكان ؟ »

« أوه ، نعم ! كان جميلا للغاية وخاصة المروج الخضراء المطلة على الرافد . ولقد لاحظت كذلك أن واجهة المنزل تطل على الطريق لا على نهر تشيه »

وحاول ستيف أن يفسر ذلك فقال : « ذلك لأن القافلة الأسبانية كانت تمر من هناك مما جعلهم يعكسون النمط العادي »

وسألها : « وهل خرجت الى جزيرة آفري ؟ »

وهزت رأسها قائلة : « لا »

« حسنا . سوف نذهب في السيارة الى هناك بعد وجبة الظهيرة »

وعاد يوجه انتباهه الى الطريق . ووجدت جولي نفسها تستند الى مقعدها في قناعة ورضا . كانت تحس ببهجة عارمة وهي تجلس في مقعدها الى جانب ستيف وتعلم أنها ستمضي النهار كله معه وتحت تصرفه . ولم يكن ستيف يعرف ماذا يعني لها الوقت الذي يقضيه معها .

ووجدا في المتجر الثاني الذي دخلاه في نيوايبيريا خامة القماش التي كانت

جولي تريدها للأريكة والكراسي . كانت من المخمل الناعم الأخضر الفاتح ، تنسجم تماما مع خشب الجوز القاتم . ولسؤ الحظ لم تكن هناك كمية كافية لقطع الأثاث الثلاث . وأكد المشرف على المحل أن في وسعه أن يستحضر لهما ما يطلبانه من هذه الخامة مع الطرود الآتية .

وقالت جولي موجهة الكلام الى ستيف بلهجة مطمئنة :

« أفضل أن ننتظر حتى يصل القماش الجديد فمن المحتمل أن تختلف درجة اللون »

ووافق ستيف وقال : «أنت على صواب »

وصحب ستيف جولي الى السيارة ثانية بعدما تأكد من أن الشحنة المقبلة من القماش ستصل في أقل من أسبوع . ونظر ستيف الى ساعته وقال :

« لازالت أمامنا ساعة حتى يحين موعد وجبة الظهيرة . ولكن بما أنك لم تفطري فلماذا لا نأكل الآن ؟ »

واعترفت جولي قائلة : « بدأت أحس بالجوع »

« اذا كنت تحبين الطعام المكسيكي فانني أعرف مطعما يقدم وجبة شهية من تلك الأطباق »

« فكرة عظيمة »

كان مطعم رافييل صغيرا يقع فى أحد الشوارع الجانبية وبدت زخارفه من الداخل مزيجا من البساطة والأناقة توحي بجو كلاسيكي . وماكادا يجلسان الى أحد الموائد حتى دخل الى الصالة رجل داكن البشرة كبير السن ، وما أن لمح ستيف حتى أشرق وجهه بابتسامة وخطا نحوهما يتهلل قائلا :« إيستبان! »

وأتبعها بفيض من الحديث في الأسبا نية لم تستطع جولي أن تدرك مضمونه واستطاعت أن تفهم أن كلمة إيبان هي إيستبان . وعرفت كذلك أن الرجل الذي بادرها بالتحية هو رافييل صاحب المطعم . وأدركت كذلك أن ستيف كان يتردد على مطعم رافييل كثيرا . وقام ستيف بالتعريف قائلا :

« رافييل .. هذه هي مس جولي سميث . إنها تمضي اجازتها هنا في لويزيانا »

والتفت الى جولي:« أود أن أقدم لك رافييل الفاريز وهو صديق حميم لي »

ومدت يدها الى الرجل الأكبر سنا تقول :« يوم طيب يا سنيور الفاريز »

قالتها بالأسبانية وانحنى الرجل برشاقة على يدها وهو يقول :

« أوه .. هل تتكلمين الأسبانية يا سنيوريتا ؟ »
وأجابت جولي : « إنها مجرد تحيات أهلا وسهلا . وداعا كيف حالك ؟ »
وابتسم السنيور الفاريز في اكتئاب وقال : « للأسف أنها لغة جميلة للمحبين . ينبغي أن يقوم إيستبان بتعليمك هذه اللغة »
والقت عيناها على ستيف الذي كان يرقبها في سرور نظرة ذات معنى وهو يقول في الأسبانية : « أنه أستاذ حاذق »
وتدخل ستيف ليمنع التمادي في الملاحظات الشخصية وأخبر رافييل عن الأصناف التي يفضلها للوجبة الخفيفة . ولم تهتم جولي كثيرا بأن تختار شيئا وتركت ستيف يختار لها بينما أخذت أفكارها تشرد ، وعندما غادر رافييل المائدة قال ستيف : « تبدين شاردة ! ما الذي يضايقك ؟ »
« كنت أخمن أنك تتكلم الفرنسية بطلاقة . والآن تتكلم الأسبانية »
« هل يدفعك حب الأستطلاع ! »
« نعم ، أعرف الآن أنك تمتلك مستعمرة . ولكن قبل ذلك لابد أنك تعلمت تلك اللغات المختلفة قبل أن تأتي الى هنا . إنني أحاول أن أتخيل : ماذا كان عملك السابق ؟ »
« لقد عملت ضابطا على سفينة شحن غير نظامية مدة أحد عشر عاما »
« وماذا تعني سفينة شحن غير نظامية ؟ »
« أنها السفينة التي ليس لها مرفأ ثابت . فقد تحمل شحنة الحبوب من نيوأورليانزا الى اليابان مثلا ، ومن هناك قد تحمل شحنة الى الهند وهكذا . وقد تمضي على السفينة عامان أو ثلاثة قبل أن تعود الى الميناء نفسه »
« وهذه هو السر في أنك تعرف لغات عديدة ؟ »
« الواقع أنني أتكلم أربع لغات الى جانب الانكليزية . انها الايطالية والألمانية فضلا عن الفرنسية والأسبانية »
ونظرت اليه جولي باستغراب من خلال رموشها وهي تقول :
« قلت أحد عشر عاما . لابد أنك كنت صغير السن للغاية ! »
« كان عمري سبعة عشر عاما وكنت يتيما ولم يكن لي أقارب من الدرجة الأولى أو الثانية . وشدتني حياة البحر المليئة بالمخاطر والشاعرية . كنت في ذلك الوقت أعيش في الشمال في بوسطن وحلمت بالهرب الى جزيرة في البحار الجنوبية ، وترددت على أرصفة شحن السفن عدة أشهر قبل أن يرفق بي قبطان

تلك السفينة غير النظامية ويقبل قيدي ضمن طاقم سفينته وعاملني كأب ولم تكن له نفسه أسرة . وظللت أبحر معه حتى توفي منذ حوالي خمس سنوات »
« وكان ذلك، هو التاريخ الذي قدمت فيه الى هنا ؟ »
« لقد عدت الى الولايات المتحدة وانتهى بي المطاف في نيوأورليانز حيث قابلت كلودين . كنت قد مللت التجول بالرغم من أنني عشقت حياة البحر »
وومضت عيناه نحوها عبر المائدة وقال :
« هل تريدين أن تسمعي المزيد عن الماضي السيء ؟ ! »
« حسنا لقد أغفلت ذكر الفتيات اللائي تعرفت بهن في الموانيء المختلفة »
وظهرت على وجهها ابتسامة تعذبه بأثارة رغبة فيه لا تعتزم اشباعها وواصلت
« لابد أنك خلفت وراءك صفا من القلوب المنكسرة يمتد من أقصى الأرض الى أقصاها »
« لن أحدثك عن النساء اللائي كنت أقابلهن من فئات لا تعرف معنى انكسار القلب . على أن النساء المحترمات لا يترددن على الأماكن التي يقصدها البحارة للمتعة »
وابتسمت جولي في اشراق عندما اقترب الغارسون ومعه الطعام وقالت :
« لقد كنت على صواب الى حد ما عندما شبهتك بالقرصان إياه . سوف يبدو عليك أكثر رونقا »
« لا أعرف . وعلى أي حال فان الفتاة لا تلبس قرطا واحدا في إحدى أذنيها ، والأفضل أن تحتفظ به كتذكار »
وسألها ستيف في هدوء:
« ألا تريدين تذكارا عن الوقت الذي نقضية سويا؟»
وأخذها السؤال على غرة فأجابت في حدة : « لا »
كانت تعرف تماما أن ذكرياتها مع ستيف تظل حية دون تذكار . وحاولت أن تبدل حدتها الى مرح ، ولكن ذلك لم يخل من زيف وعصبية .
قالت : « أرجو أن تحتفظ به لفتاة أخرى قد تبدو في زي أكثر جمالا مثل زي الغجر »
وهز ستيف كتفيه في شيء من عدم الأكتراث وركز على الطعام وهو يقول: « قولي ما يحلو لك »

٩ ـ هناك قمر في مكان ما

كان المساء حالك السواد عندما استأنف ستيف وجولى رحلة العودة بالسيارة. وظهرت فى المساء نجوم قليلة، ولم يكن للقمر أى أثر رغم أن جولى كانت تقول انه لابد أن يكون هناك فى مكان ما. وتجمعت قطع ضئيلة من الضباب على هيئة سحب رمادية فوق المستنقعات الممتدة على طول الطريق لتنسج بين الحين والآخر ستارا يشبه نسيج العنكبوت يطفو فى الجو ليجرى ملتفا كالدوامة أمام السيارات المارة وكأنه ضباب راقص. وكان ذلك بالنسبة الى جولى جزءاً من سحر اللحظة الأثرية التى تعيشها وهى الى جانب ستيف. وما أسرع ما مضى الوقت. فقد توقف ستيف فى سيارته عند المنعطف المواجه لبيت آل لوبلان، ولم ينطق أيهما بكلمة بعدما أوقف محرك السيارة. لم تكن جولى فى عجلة من أمرها لتسرع بالدخول، ولم يكن ستيف فى نفس الوقت يستحثها على ذلك. وأشعل سيجارة، وبدا وجهه فى ضوء عود الثقاب وقد برزت ملامحه بروزا حادا وامتد الصمت بينهما وجاء صوت صرصار الليل فى الخارج يتردد على مقعدها، وأخذت تحدق فى وجه ستيف الذى اعتلته بعض القتامة. وتمتم ستيف فى شىء من العصبية، وقال: « شىء لايطاق.»

ونفض السيجارة من النافذة بحركة مضطربة والتفت نحو جولى فهمست وهى لاتدرى اذا كان قد صدر عنها ما أثار غضبه. وقالت: « ماذا يضايقك؟»

وامتدت يده لتستدير حول رقبتها فى قبضة مؤلمة، وقال: « انت.. لم يحدث أن قيل لى قبل ذلك أن...»

ولم تتح لها الفرصة لتنصت الى ما كان ينوى قوله. اذ سارع الى عناقها فيما كانت يده تضغط عليها بقوة فى مقعدها بحيث لم تستطيع أن تقترب منه، ثم قال: « لا أريدك ان تدخلى.»

واجابت وصوتها يضطرم بالانفعال الذى أثاره فيها: « لا أريد أنا أيضا ذلك.»

وحدق فيها من خلال الظلمة التى تغمر السيارة: « أنك لاتدركين ما تقولين. من الأفضل أن تدخلى الآن.»

وأضاف مؤكدا: « سوف.. سوف أتصل بك غدا.»

وفتحت باب السيارة. واشتعل الضوء الداخلى آليا. وحدقت فيه قبل أن تخرج ولمحت الرغبة فى عينيه وهما تنظران اليها. وكادت تغلق الباب من جديد لتستقر بين ذراعيه. لكن العقل والحذر سيطرا عليها، وانسلت من السيارة واتجهت الى البيت بسرعة.

* * *

كان البيت هادئا فيما عدا صوت موسيقى مكتومة آتية من جهاز تسجيل من حجرة المعيشة، فعرفت أن شخصا آخر كان هناك. ولم تكن جولى تود أن تقابل أيا من افراد الأسرة حتى لاتضطر الى اعادة سرد أحداث اليوم. كانت تريد أن تحتفظ لنفسها بنكهة تلك اللحظات فترة أطول. ولذلك تسللت تصعد الدرج الى حجرتها. وتركت باب الحجرة مفتوحا، واجتازت لتشعل المصباح الأرضى. وعندما قفلت راجعة لتغلق باب الحجرة رأت كلودين تقف عند المدخل. كان شعرها الأسود يتهدل على كتفيها، وكانت تلبس قميص نوم لونه أخضر فى زرقة غريبة ذكر جولى بريش الطاووس وبرز من تحته قميص قصير ينسجم معه. ونظرت الى جولى تقول: « لقد رجعت اذن! هل استمتعت بنزهة قصيرة مع ستيف؟»

واجابت جولى فى هدوء وهى تحاول ألا تتيح الفرصة امام كلودين للاستمرار فى التحدى: « لقد أمضينا معا وقتا سعيدا للغاية.»

« لا بد أنك جعلته يخضع لمشيئتك فى التجول فى تلك المناطق السياحية.»

« الحقيقة أن ستيف اقترح أن أزور جزيرة آفرى فذهبنا الى هناك بناء على

اقتراحه.»

« سبق له أن زار آفرى مرات عدة. انها لمعجزة أنه لم يضجر من هذه الزيارة بشكل يفقده صوابه.»

وأجابت جولى وابتسامة خفيفة على وجهها أشعلت نار الغضب فى عينى كلودين القاتمتين: « لاأعتقد أنه ضجر على الاطلاق.»

واستدارت جولى تلتقط فرشاة شعرها وهى تأمل أن تفهم كلودين من خلال ذلك أنها لاتريد الاستمرار في هذا الحوار. ولكن كلودين تشدقت من خلفها قائلة : « أرجو ألا تحسبى أنه يهتم بك بالفعل. فأنت فتاة تنقصها الخبرة وربما تجلبين لنفسك الضرر.»

«أعتقد أننى فى سن يتيح لى أن أعرف كيف أحافظ على نفسى.»

« رجولته يمكن أن تصبح مسيطرة. ولقد وقعت فى حبائله من قبل نساء أكثر نضجا منك.»

ونظرت جولى فى سذاجة الى كلودين، وقالت:

« وهل كنت أنت واحدة منهن ؟ »

« أننى أكثر من غيرى خبرة واحتمالا، وأعتقد أنك تضعين نفسك فى موقف لم تنضجى له بعد.»

« هذه مشكلتى أنا. أليس كذلك؟»

وأجابت كلودين فى حدة: « بالطبع. كنت أحاول أن أقدم اليك نصيحة ودية صغيرة. ولكن اذا كنت تفكرين فى قضاء وقت سعيد من اجازتك بدون أن تتورطى. فاستمتعى بوقتك ولن تجدى أفضل من ستيف ليحقق لك ذلك. ولكن تأكدى من أنه لن يقبل الارتباط أبعد من ذلك.»

وعلقت جولى: « أعتقد أن ذلك سبب لك شيئا من الكدر.»

وبدا الغضب المكبوت على وجه كلودين وقالت:

« ستيف رجل ككل الرجال، ويجد فى رفقتى ما يشبع تطلعاته.»

وعلقت جولى للمرة الثانية: « تستطيع أى امرأة أن تفعل ذلك.»

كان الحديث بينهما قد تطور بشكل سريع انكشفت معه فى وضوح كراهية كلودين لجولى. وقالت فى تحد :

« لنتكلم بصراحة. قد أجد فى سذاجتك شيئا من التسلية الآن. ولكن الأمر لن يستمر هكذا فاما أن ينجح في غوايتك وعندئذ تفيقين على الحقيقة أو أن

يشعر بالملل منك وعندئذ يهجرك تماما . وأنت بالنسبة اليه مجرد ذكرى عارضة ، وسوف تدركين ذلك بنفسك »

واستلت جولى« مخالبها لترد قائلة :

« قد تكونين على صواب ولكن ألا يمكن أن يكون قد بدأ يحس فعلا بالضجر من البضاعة المستعملة وقد يكون بحاجة الآن الى أن يجرب شيئا جديدا تماما يستطيع أن يشكله بما يتمشى مع تطلعاته ؟ »

وارتفعت يد كلودين مهددة وظنت جولي للحظة أنها أرادت أن تصفعها ، ولكن كلودين تراجعت واتجهت نحو الباب من دون أن تغادر الحجرة . واستدارت نحو جولي لتقول في احتقار :

« انك ترتكبين غلطة كبيرة »

وغادرت الحجرة . وأخذت جولي تمعن التفكير وحدثت نفسها : لقد كسبت الجولة الأولى .. ولكنها الحرب الآن .

كشفت كلودين النقاب عن مشاعرها ، ولم يكن واردا لدى جولي أن تراجع أمام أي شخص . وكان اليوم رائعا رغم ما يمكن أن يأتي به الغد من متاعب ، ولم تكن تريد أن تشغل نفسها الليلة بما يمكن أن يحدث غدا . وعندما وضعت رأسها على الوسادة كان كل ما تفكر فيه هو السعادة المنتشية التي تحس بها وهي بين ذراعي ستيف . ولم تكن تريد أن تترك لسان كلودين اللاذع الحقود يؤرق أحلامها .

استيقظت جولي باكرا في الصباح التالي ، وارتدت ثوبا أبيض اللون زاهيا تزينه بعض الأزهار البرتقالية والصفراء ، وحذاء خفيفا برزت منه أصابع قدميها . واستخدمت بعض الماكياج البسيط والقت نظرة على المرآة فكانت راضية كل الرضا . وراحت تردد نغمة مرحة وهي تهبط الدرج الى المطبخ . كان كل ما قاله ستيف أنه يتصل بها اليوم وان لم يذكر شيئا عن اعتزامه مرافقتها الى مكان معين ، ولم يذكر كذلك شيئا عن الوقت الذي يتصل فيه : هل هو الصباح ؟ أم المساء ؟ وكانت على استعداد للإستجابة لأي شيء .

وجلست السيدة لوبلان وميشيل وغي الى مائدة الطعام الصغيرة ، فيما كان اميل لوبلان قد خرج . أما كلودين فلم تكن قد استيقظت بعد ولم يؤثر ذلك في جولي اطلاقا . وبدت السيدة لوبلان كعادتها مبتهجة .

وكانت سعادة جولي الغامرة تتناسب تماما مع التحية المشرقة التي قابلتها

بها . وأومأ غي اليها إيماءة مقتضبة بدا فيها شيء من الاكتئاب والانهام . لكنها تجاهلته وراحت تصب لنفسها فنجانا من القهوة ، وجلست على الكرسي الشاغر عند نهاية المائدة .

وعلقت ميشيل وقد بدت في عينيها نظرة سليطة اتجهت الى جولي ثم الى أخيها وهي تقول : « لقد تسللت الى فراشك الليلة الماضية دون أن تقصي علينا شيئا من مغامراتك بالأمس »

وعلقت السيدة لوبلان : « صحيح يا جولي . حدثينا أين أخذك إيثان ؟ »

وظل غي يحدق في فنجانه باكتئاب وبدأت جولي تقول :

« لقد ذهبنا الى جزيرة آفري »

وراحت تنقل اليهم انطباعتها عما رأته وهي تتجنب أن تركز شيئا من الحديث حول الذي كان يرافقها .

وتحمست السيدة لوبلان خلال الحديث فقالت :

« ما أجمل هذه الحدائق في شهر آذار (مارس) عندما تزهر الازاليا والكاميليا ! عند ذلك ترين ألوانا عديدة وزهورا كثيرة في كل مكان »

وعلقت جولي قائلة : « إن أجمل ما في حدائق الغابة أنه ليس من الضروري أن تكون الأزهار متفتحة لكي يستمتع الزائر بالمكان . وبالطبع فهناك أزهار عديدة متفتحة على مدى أشهر السنة ، ولقد كنت حريصة على زيارتها مهما كلفني ذلك »

وابتسمت السيدة لوبلان وقالت :

« انني لسعيدة كون إيثان اصطحبك الى هناك »

وقطع غي صمته الذي فرضه على نفسه وقال :

« ولكن كلودين ليست كذلك »

ونظرت السيدة لوبلان الى ابنها في استغراب وقالت :

« لماذا تتضايق كلودين من ذلك ؟ »

وهز غي رأسه في يأس قائلا : « لايعقل أن لا تعرفي السبب ! »

وردت السيدة لوبلان في تأكيد : « اذا كنت تحاول أن تقول أن هناك شيئا جادا بين إيثان وكلودين فأنت مخطيء . انهما يعرفان بعضهما البعض منذ أمد بعيد ، أربع سنوات خمس سنوات ؟ ولقد كان هذا الوقت كافيا لاستكشاف اذا كان ما بينهما يمكن أن يؤخذ بجدية أم لا . ألا ترى أن ما

مضى من الوقت بين إيثان وكلودين كاف لأن يعبر هو عن اعتزامه الاقتران بها ؟ أعتقد أن ما بينهما مجرد صداقة لا أكثر »

وابتسم غي ونظر الى أمه في شيء من الأسف قائلا :

« أنك تعتنقين أفكارا محافظة للغاية »

وأومأت قائلة : « ربما ولكن عندما يضع الرجل خاتم الزواج حول أصبع المرأة فذلك يدل على أنه جاد . أما قبل ذلك فهو شيء من العبث . أعتقد أن ما يضايقك هو كون جولي هي التي كانت مع إيثان . وكنت تود أن تكون أنت من أمضى اليوم مع جولي »

وعلق غي قائلا : « ربما تكونين على صواب في ذلك »

كانت السيدة لوبلان على استعداد لمتابعة الحديث في هذا الموضوع . ولحسن الحظ دق جرس الهاتف في الصالة ، فأسرع نبض قلب جولي توقعا لما قد تأتي به المكالمة . ونهض غي عن المائدة قبل أن تجد أي من شقيقتيه الفرصة للإجابة وقال : « سأرد على المكالمة »

ونظرت ميشيل الى ساعة الحائط وتنهدت قائلة :

« أرجو أن يكون المتحدث ناظر المدرسة فيبلغني أن ماسورة المياه قد انكسرت وأن المدرسة غارقة في المياه . إنني لا أريد أن أرى هؤلاء الأطفال اليوم »

قالت ذلك وهي تجمع أوراقها استعدادا للخروج وواصلت : « أعتقد أن المعلمين يتطلعون الى نهاية الأسبوع بشوق أكثر مما يتطلع اليها التلاميذ »

وجاء صوت غي معلنا : « جولي ، المخابرة لك »

وتمتمت معتذرة وهي تغادر المائدة . وأمسكت السماعة قائلة : « آلو »

وكانت تعرف أن المتحدث لن يكون سوى ستيف وأجاب ستيف :

« صباح الخير . هل نمت جيدا الليلة الماضية ؟ »

وضحكت في عصبية وقالت : « لم أدر بنفسي اطلاقا »

« هذا حسن . أما أنا فلم تغمض لي عين »

« آسفة لذلك »

« حقا ؟ ولكن هذا لايساعد كثيرا في العلاج »

وأجابت جولي : « أعرف ذلك »

وتابع ستيف : « لقد اتصلت بك لأخبرك أنني مشغول اليوم ، فقد تعطل أحد الجرارات الخاصة بالمزرعة أمس ، ويجب أن أذهب الى لافاييت لأشتري

بعض قطع الغيار . وسوف أمضي جزءا كبيرا من النهار وربما الليل لكي إكمل إصلاحه »

وعلقت جولي وهي تحاول أن تخفي ما أحست به من إحباط :

« على كل حال لم تكن لدينا خطة محددة ولم يكن بامكانك أن تتنبأ أمس بما كان سيحدث للجرار اليوم »

وجاء رد ستيف معبرا في صدق عن آسفه : «إنني أيضا أحس بالأسف يا جولي ، فما خطتك اليوم أثناء إنشغالي باصلاح الجرار ؟ »

وأجابت في جرأة : « سأجلس لأفكر فيك »

وهمهم في قسوة وسخرية :

« إن أى تعليق آخر مثل هذا قد يجعلني أغير رأيي وأهمل الجرار »

« هل تعد بذلك ؟ »

قالتها في جرأة وواصلت : « إنني أتراجع عما قلت . وعلى كل حال فأنا أبنة مزارع وأفهم جيدا أهمية إصلاح الجرار »

« شكرا يا حبيبتي ، واذا ربما الى الغد »

« نعم ، الى الغد »

وبعدما أغلق الخط أعادت جولي السماعة الى مكانها واستقرت يدها عليها لفترة قصيرة كما لو كانت بطريقة لاشعورية تطيل حديثها مع ستيف . وسمعت صوت خطوات تقترب نحوها واصطنعت ابتسامة على وجهها ، والتفتت لتجد غي يحدق فيها وعيناه تعكسان شيئا من الشك والضيق . وقال :

« في وسعنا أن نلعب بضعة أشواط من التنس عصر اليوم اذا كان لدينا وقت يسمح بذلك »

« إنني على استعداد »

قالتها في هدوء وهي تأمل أن تكفر عن ذنب كانت تحس به إزاءه ، ومع ذلك لم تكن تستطيع أن تنكر أنها وقعت بالفعل في حب ستيف وأن غي لم يكن بالنسبة اليها أكثر من صديق ، وشرع غي في الإجابة ثم توقف وأغلق فمه بإحكام واتجه نحوالباب الأمامي وهو يوميء برأسه . وبدت جولي وكأنها لم تتأثر بالكآبة الواضحة على وجه غي ولا بالخبر الذي سمعته من أنها لن ترى ستيف اليوم . فلقد عززت المكالمة الهاتفية أملها في أن ستيف كان يريدها أن تكون معه . وبدا أيضا أسفه الواضح لعدم تمكنه من رؤيتها وكان

ذلك في ذاته نوعا من المواساه .

عندما حان وقت العصر كان غي قد تخلص من شعور الكآبة الذي سيطر عليه واختفى التوتر الذي انتاب جولي عندما اطمأنت الى تصرفه الذي كان يعكس ارتياحه . وبعدما لعبت شوطين انتصر فيهما غي بنقط قليلة حضرت مجموعة صغيرة من أصدقاء غي ، ولم تعد جولي مركز اهتمامه . فقد لمحت تعلقه بفتاة جذابة شقراء ، وشاركت جولي في بعض أشواط التنس الأخرى الفردية أو المزدوجة كانت تتمنى بعدها أن تعود الى البيت . ولكن غي كان يتلكأ في ذلك رغم أن من في المجموعة أبدوا ميلا الى الانصراف .

وكانت جولي تريد أن تذكره بأن موعد العشاء قد حان ، ولكنها خشيت أن يضايقه ذلك . وأخيرا انفرط عقد المجموعة عندما لاح الشفق القرمزي ، وصحب غي جولي على مضض الى سيارته وحاول أن يعتذر فيها عن سلوكه فقال : « لقد استعرت عبارة من ستيف سمعتها منه فيما كان يوبخ كلودين قائلا أنه لاتوجد امرأة في حياة أي رجل لاتستطيع امرأة أخرى أن تجعله ينساها »

وأخذت جولي تسائل نفسها : « هل يعتقد ستيف ذلك حقا ؟ »

وأحست بشيء من الهلع يعتصر قلبها . هل يهتم بها ستيف حقا ؟ هل كان عناقه لها يعكس شعوره الحقيقي بالحب نحوها ؟ وكان ما يثير ذعرها أنها سمعت ستيف يقول لها أن الزواج شيء لايفكر فيه . بل لقد أنكر مرة وجود ما يسمى الحب . ولعله لو عرف أنها قد وقعت في حبه بالفعل لابتسم وقال لها أنها سوف تشفى من ذلك الحب .

واستعرضت في خاطرها الحياة التي يعيشها ستيف وظنت أنه من غير المحتمل أن يكون قد أحس أو شعر في أي نوع من الحب . لقد تيتم في سني مهده الأولى وأمضى شبابه في البحر متنقلا من ميناء الى ميناء . ولم يألف أن يكون له مستقر على هيئة بيت ، ولم يكن غريبا أن ينجذب الى كاميرون هول ، المستعمرة التي حملت اسمه على بوابتها .

ولكن هل كان ذلك ليقدم له أي قدر من الاطمئنان ؟ هل كان يحبها حقا ؟ أم كان في استطاعة امرأة أخرى أن تحل محلها في ذكرياته ؟ كانت تخشى أن تكون مجرد واحدة من قصص عاشها على ظهر السفينة . مجرد فتاة في أحد الموانى ! . كانت وهي تجلس في صمت الى جوار غي تحس بالخوف والقلق وبالأذى المرتقب .

١٠ ـ حريق في البحيرة

سأل ستيف جولي بعدما عبرا الجسر الصغير فوق الرافد ووفقا الرسوم المقررة

« بما أنك أصلا من الشمال فلا أعتقد أنك لاحظت استواء الأرض الواضح هنا في جنوب لويزيانا »

« نعم ولا . فقد لاحظت ذلك . لكنني أعتقد أنك تسأل :

« هل لفت ذلك انتباهي بشكل غريب »

وأومأ ستيف بالإيجاب وعندئذ علقت : « اذا لا »

« التلال غير منتشرة هنا . حتى أنها تعتبر شيئا نادرا . وفي حديقة الأودبون في نيوأورليانز تجدين التل الوحيد ، في العالم على الأرجح الذي صنعه الانسان ويسمى تل القرود . فلقد تكدست النفايات الى ارتفاع وصل الى حوالي أربعين قدما في الثلاثينات وأصبح بإمكان الأطفال في لويزيانا أن يشاهدوا منظرا يمثل التل . »

وضحكت جولي وقالت : « لا إنها الحقيقة ، وهذا هو السبب في أن جزيرة افري أصبحت من الغرائب منذ زمن بعيد . وأعلى نقطة فيها تصل الى حوالي مائة وتسعين قدما فوق سطح المياه التي تحيط فيها ، وهذا ما جعلها تتمتع بمركز فريد وان لم يكن قد أكسبها قيمة »

« وما الذي جعلها كذلك ؟ »

« الملح . وهو اكتشف لأول مرة في ينبوع في أحد الوديان الضيقة الشديدة الانحدار ، يتحول بالغليان الى أشكال بلورية . ورغم ذلك فقد كان استيراد الملح في اوروبا في القرن التاسع عشر أقل كلفة . وعندما قامت الحرب ١٨١٢ وحاصرت انكلترا الولايات المتحدة كان من الضروري الحصول على الملح بكميات كبيرة بطرق أولية للغاية عن طريق الغليان والتبخير . وقد اقتضت

الحرب الأهلية والحصار الإتحادي فيما بعد أن يعتمد الجنوب على مصادره الخاصة في الحصول على الملح . وعندما حاولوا تعميق الينبوع المالح اكتشفوا كمية كبيرة من الملح الصخري مترسبة مسافة أميال والى أعماق لم يكن التكهن بها ممكنا . وأصبحت هذه مناجم الملح منذ ذلك العهد . وسنقوم بجولة في منجم الملح أولا »

وتجاهل ستيف اللافتة التي تشير الى الحدائق الكائنة في الغابة وتابع :

« والملح لا يكتمل دون الفلفل . وجزيرة افري هي منبع صلصة خاصة تصنع في الجزيرة كلها »

واكتشفت جولي أن المنجم مثير وباعث للاهتمام . كانت السقوف ترتفع ستين قدما وكأنها تستند الى أعمدة بلورية . ولم تنس جولي أن السطح كان على مسافة تصل الى ما يقرب من خمسمائة قدم . وبدأ شعور بالخوف من الأماكن المغلقة يراودها عندما استأنفا العودة الى السطح . وسألها ستيف وهي تنشق أنفاسها بعمق عندما خرجا : « هل أنت في حال أفضل ؟ »

ونظرت اليه في دهشة وتنشقت الهواء وقالت : « وكيف عرفت ؟ »

وابتسم ستيف وقال : « بدا عليك الشحوب قليلا . سوف أتذكر في المرة المقبلة أن الأماكن التي تقع تحت سطح الأرض لا تناسبك »

« المرة المقبلة ؟! »

كانت جولي قد أحست بسحر الكلمات ولم تعد قادرة على تثبيت قدميها وشعرت أنها تسبح وهي تعود الى السيارة مع ستيف .. وكانا على مسافة قريبة من المنحنى المؤدي الى حدائق الغابة ومدينة الطيور . وأشار ستيف الى قصر كائن على الطريق المقابل لبوابة الدخول وقال : « ذلك هو تل ماي وارد . إنه صرة الحديقة وكان يخص المرحوم ادوارد أفري ماكلهيني الذي ينسب اليه إنشاء حدائق الغابة ومدينة الطيور . هل أنت مستعدة للمشي ؟ »

ونظر اليها في ابتسامة تدفعها الى الاستسلام وعلقت عندما توقف بالسيارة في أحد الأركان : « ولكن الطريق لاينتهي هنا »

« نعم ، ولكن لكي تجد الفرصة للاستمتاع الحقيقي بجمال المكان ، ينبغي أن نسير على الأقدام ، فضلا عن أن هذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول الى مدينة الطيور »

وتبعته وهي تقول : « المشي متعتي »

« حسنا . ومع ذلك فلن نستطيع أن نقطع الحدائق بأكملها . فالمساحة تزيد على مائتين وخمسين فدانا »

وقادها الممر الذي سلكاه الى أحواض نمو الخيزران المستورد ، تنتهي برصيف وبرج للمشاهدة يمتد عبر بركة كبيرة تسبح فيها الطيور المائية بأعداد متفاوتة . كان المكان ينعم بهدوء جميل جعل جولي تفضل البقاء فيه . ولكن ستيف أقنعها بأن أمامها الكثير من المناظر التي تستحق المشاهدة . وشقا طريقهما من جديد الى السيارة .

كان الطريق ينحني ويستدير في تلك المنطقة وبدت أشجار الماجنوليا جميلة الأوراق والزهر ، كذلك أشجار البلوط الضخمة على الجانبين تليها أحواض الخيزران العالية أو الخفيضة وبعض الأشجار المزهرة . أما أشجار الأزاليا ذلك النبات الصحراوي فكانت شائعة .

وتوقفا ثم سارا خلال الأرض المنخفضة وبين زهور الكاميليا البيضاء والحمراء وشاهدا الشلالات الصناعية . وعادا الى السيارة ليستأنفا جولتيهما بمحاذاة رافد الآنسو الصغير من اليمين وشريط المستنقع الضيق من اليسار . وأدى بهما الطريق الى مكان صغير للانتظار ، ووجدا لافتة جذبت انتباههما الى شجرة كليفلاند الشهيرة التي كانت تستخدم منذ سنوات كنقطة يتم منها مسح المنطقة الأصلية . ولم يحتج الأمر هذه المرة أن يطلب ستيف الى جولي السير على الممر المؤدي الى الشجرة ، فخرجت من السيارة في حماسة لتطل عن كثب على ذلك القسم من الحدائق .

ووقفا تحت الشجرة العملاقة يتأملان فعل الطبيعة وأثر الزمن في الأغصان المتكسرة والشقوق الغائرة في جذعها الأخضر . ومع ذلك بدت الشجرة قوية تستطيع أن تصمد مئات من السنين وعليها مجموعات من الطحالب الأسبانية تبدو وكأنها لحية رجل متقدم في العمر . ولكن الممر لم ينته عند شجرة البلوط بل كان يمتد فيما يشبه غابة كثيفة .

وسألت جولي في استغراب : « الى أين يتجه الممر بعد ذلك »

« سوف تستكشف »

وأشار اليها بأن تسبقه قائلا :

« انتبهي فالممر لايستخدم كثيرا وقد يكون لزجا »

كانت العوارض الخرسانية مغطاة بالطحالب في بعض الأجزاء وكانت قد

تكسرت قطعا صغيرة في أجزاء أخرى .وساعدتها يد ستيف التي كانت تسند مرفقها على اجتياز الطريق رغم أن ملمسه كان يثير فيها بعض الاضطراب .

وبدا على أحد حافتي الممر مستنقع مائي يشبه مجرى صغيرا بينما ارتفع قصب الخيزران على الحافة الأخرى . وعند ثنية منحنى في الممر ظهرت بجعتان بيضاوان تسبحان في بطء على الماء . وأحستا بوقع الخطى فبدأتا تتحركان في مشهد رائع وأحدثتا بعض التموجات الطفيفة على سطح الماء الرائق كالمرآة .

كانت جولي قد سحرت بمنظر الطائرين البديعين حتى أنها لم تنتبه الى الأرض غير المستوية أمامها واصطدمت قدمها بقطعة ناتئة من الخرسانة كادت تسقط معها الى الأمام ولكن ذراع ستيف حمتها من السقوط ، واحمرت وجنتاها من الاضطراب وتلعثمت وهي تشكره . وحاولت أن تتخلص من ذراعه المحيطة بخصرها والتي كانت تشدها لتلتصق به ، ولكنه رفض أن يرخي قبضته وهمس برقة في أذنها قائلا :

« لم يكن من السهل أن نتجنب ذلك . كان من اللازم أن ينتهي بك الأمر بين ذراعي بطريقة أو بأخرى »

وقبل أن تتمكن جولي من أن تستدير لمواجهته كان بينهما عناق مسيطر . كان كل الحنين الذي حاولت أن تبعده عنها في ذراعيه قد بدأ ينطلق في حرية كاملة عندما استسلمت بسعادة لعناقه . وأحست جولي وكأنها انتقلت الى افاق جديدة من الحب سببت لها الدوار أكثر من الشرارة الملتهبة التي رافقت العناق الأول بينهما وبات دفء الحب الذي كان بينهما في يوم من الأيام نارا محرقة . واستطاع ستيف بخبرته المتخصصة فى العناق أن يضيف مزيدا من الوقود .

وجاءت قهقهة بعض الأطفال من مسافة قصيرة لتهدىء من هذا الوضع قبل أن يتطور ما بينهما الى مرحلة أخرى . ورغم ذلك لم يسمح لها بأن تبتعد عنه بل احتفظ بها بين ذراعيه ورأسها يستند الى صدره حتى هدأت دقات قلبها واستقرت انفاسها بعض الشيء . وأيقنت جولي التي كانت تتطلع الى مزيد من العناق أنه لولا أصوات الآخرين فلربما قادهما العناق الى نقطة لاتؤتمن . كان عمق حبها له يمنحها السيطرة عليها .

وتحركت يد ستيف نحوها وترك أصابعه تعبث في شعرها وتحرك ابهامه

ليرفع ذقنها الى أعلى . ولم تحاول جولي أن تخفي اشاعات الحب من عينيها ، اذ ما جدوى أن تخفي عنه ما كان قد أدركه تماما ، وتمتم في صوت أجش : « لقد بدأ وهجك يلفحني . كيف نجحت في اخفاء هذا الجانب العاطفي من طبيعتك ؟ كان أولى بأحد الفرسان أن يقطفك للزواج منذ زمن بعيد »

وهمست جولي وهي تحس بأنها تغرق في نظراته قائلة :

« ينبغي للمرأة أن تبدي موافقتها على الزواج »

وتنشقت نفسا عميقا بينما كان ستيف يحاول أن يقرأ مابين الكلمات التي نطقت بها . وأحكم ذراعيه حولها . وتوقفت جولي فجأة حتى أن ستيف كان يصطدم بها . كانت يداه تستندان الى أسفل ظهرها بخفة . وحدق اليها في تجهم قائلا : «هلا كففت عن النظر الي بعينيك البنيتين ؟»

كانت جولي تستطيع أن تتبين أن رقة صوته مفتعلة . وتابع هو :

« لا أعتقد أن هذا هو المكان الذي نستطيع فيه أن نحقق مشهدا عاطفيا متقدا بينما بوذا يطل علينا »

ونظرت جولي عبر كتفها ، وعلى تل صغير في معبد زجاجي مغلق كان هناك تمثال ضخم من الذهب لبوذا يحيط به تلاله السبع يحدق في بركة صغيرة تعكس صورته على الماء في شمس المساء المتأخر . وبدفعة رقيقة من ستيف واصلت السير على الممر الذي أدى بهما الى قاعدة المعبد .

كانت الحديقة الصينية موضع اهتمام الزوار . يتوقفون للاستمتاع بمنظرها الجميل . ولم يعد هناك مجال ليتمتع ستيف وجولي بالخلوة التي كانا منفردين فيها وهما يتجولان في أقسام أخرى من الحديقة . وبعدما تسلقا الدرج المؤدي الى المعبد استطاعا أن يلقيا نظرة أقرب على بوذا الذي كان منذ أكثر من ثمانية قرون مضت يجلس في معبد شونغا بالقرب من باينغ في الصين . وقفلا راجعين الى السيارة وسلكا الطريق العام الضيق الآهل بالمارة بدلا من الطريق الذي كان يتيح لهما الاستمتاع بالخلوة بينهما .

واتجها بالسيارة الى بوابة الخروج مارين تحت ظلال كروم الفستيريا ذات الزهر العنقودي الأزرق والأبيض وتحت زهور الكاميليا ، بعدما اجتازا المنعطف الواقع عند تل ماء وارد . كانت الشمس تميل الى المغيب بأشعة ذهبية برتقالية حجبت مؤقتا أطياف الغروب القرمزية . وتنهدت جولي في عمق وهما

يجتازان البوابات الحجرية التي كانت تعلن نهاية اليوم الذي قضته جولي مع ستيف وحان الوقت ليصطحبها الى البيت الذي تقيم فيه . أما هي فكانت تتمنى أن يطول اليوم الى الأبد .

وسألها في لهجة آمرة : « هل تتناولين العشاء معي ؟ »

وأجابت في حماسة : « أتمنى ذلك »

وتوقفت بعض الوقت لتضيف في شيء من التردد :

« ولكنني لست في الزي الذي يسمح لي بذلك »

وضحك وهو ينظر الى قميص البولو الذي تلبسه والى البنطلون المخطط بالأبيض والأسود وقال : « ولا أنا . ولكن المطاعم هنا لاتصر على الرسميات »

ومد يده الطليقة عبر المقعد لتمسك بيديها وقال: « أين تتناولين العشاء ؟ »

« لا أعرف شيئا عن المطاعم هنا »

« هل تفضلين الأسماك ؟ »

« لم أكلها منذ زمن طويل ، وان كنت قد تناولت بعض القريدس وجراد البحر عندما كنت مع أسرتي »

« هذا يحسم الموضوع . اذن ستكون وجبتنا بحرية »

كان منظر المطعم يصلح مادة لصورة جميلة . وكان يلاصق رافدا مائيا ويقوم على ركائز ترفعه حوالي ثلاثة أقدام فوق الأرض . أما الطريق المؤدي اليه فكان أشبه برصيف بحري تنتشر عليه شباك الصيد وفوانيس الاضاءة المستخدمة في البحر تتدلى على واجهة المبنى التي فعل فيها الطقس فعله .

أما من الداخل فقد بدت مناظر السفن الشراعية في البحار الهائجة ، ومناظر المرافيء الهادئة تزين الجدران جنبا الى جنب مع بقايا تذكارية من سمك السيوف وغيره من عينات أخرى . أما الجدران فقد غطيت برقائق خشبية للزينة وأضيفت بحوامل ذات طراز حديث بينما كانت تتدلى من السقف بأعمدته الخشبية بعض النجف لينسجم مع المنظر العام . كان كل شيء يعبر عن البساطة في حياة البحر . واستأذن ستيف بعدما جلسا الى المائدة مباشرة ليجري اتصالا هاتفيا وراحت جولي تتفحص الطعام بعناية .

ولم يذكر ستيف شيئاً عمن اتصل بهم ولم ترغب جولي أن تتدخل فيما لايعنيها وان عبرت ملامح وجهها عن التساؤل دون أن تنطق به وابتسم ستيف وقال : « لقد اتصلت بعائلة لوبلان حتى لا تنتظرك على العشاء »

« كان ينبغي أن أفكر في ذلك وخاصة أنني لم أترك أي إشارة عن وجهتي اليوم »

وحول ستيف الحديث بمهارة عندما وجد الفتاة التي تقدم الطعام آتية نحوهما فقال :

« ما الذي استقر عليه رأيك من قائمة الطعام ؟ »

« لا أستطيع أن أتخذ قرارا ما اذا كنت أطلب شيئا أعرفه مثل القريدس أو أجرب أشياء قد لا تعجبني . من الأفضل أن أختار منتصف الطريق . قريدس مسلوق مثلا ؟ »

« جربي طبق طعام البحر ففيه قليل من كل شيء اذا كان لديك استعداد للتجريب »

ووافقت جولي وسرعان ما بدأت تشك في قرارها عندما قدم اليها فيما بعد طبق مكدس لم تر فيه شيئا تعرفه سوى القريدس المقلي . وبرز أحد الأصناف على الطبق على شكل جسم مستدير تخرج منه أرجل في سائر الاتجاهات حسبته نوعا من العناكيب مما آثار إحساسها بالغثيان . وكان ستيف طلب لنفسه الطبق ذاته . وأدرك على الفور ما أصابها من الاضطراب . وأشار الى ثلاث قطع ذات لون بني غامق على طبقها وقال : « هذا محار مقلي »

وأشار الى قطعتين صغيرتين مستديرتين قائلا :

« وهذا قريدس محشو . أما الآخر فهو كابوريا محشوة . وهنا تجدين القريدس المسلوق وستجدين كذلك المقلي منه »

وتوقفت أخيرا عند آخر صنف على الطبق وهو أول ما لفت جولي :

« وهذه كابوريا من نوع صدفة هشة »

وبدأت جولي وجبتها بالأصناف التي اعتادتها : القريدس المقلي ، وانتقلت الى المحار ولم يكن له ذلك المذاق الذي لنظيره في يخنة المحار . وكان القريدس المحشو والكابوريا مذاق لذيذ . أما المسلوق فكان متبلا تتبيلا جيدا . وبقي الشيء الوحيد الذي لم تأكله هو الكابوريا ذات الصدفة الهشة . وأخذت بالشوكة قطعة من لحمها الطري ورفعته في تردد الى فمها . وبعد دقيقة نسيت فيها تماما أي لحم هو ، وجدته لذيذ المذاق . وكانت القضمة الثانية أفضل من الأولى ، وشعرت بالزهو تماما الى أن تحدث ستيف قائلا :

« بالنسبة الى الكابوريا ذات الصدفة الهشة يأكل الانسان منها كل شيء »

ونظرت اليه في شك، وقالت :

« إنك تمزح »

ورد عليها : « لا أمزح بل تأكلين كل شيء »

ولكي يبرهن صحة كلامه نزع واحدة من الأرجل الكبيرة للكابوريا من طبقه ودفعها الى فمه . وكادت عيناها تخرجان من مكانيهما وهي ترقبه يمضغها بأسنانه ويبتلعها . وانطلقت من فمها قهقهة قصيرة عندما أدركت أنها لم تكن خدعة وأن رجل الكابوريا لن تعود الى الظهور مرة أخرى .

وقال يؤكد لها : « إنها لذيذة المذاق حقا جربي واحدة »

ولم تدع رغبتها في تجريب الطعام تخذلها هذه المرة ، وخاصة أن ستيف كان ينتظر .. واستجمعت شجاعتها ونزعت احدى الأرجل الصغيرة ورفعتها في خوف الى فمها ولم تسمح لنفسها بالتردد وبدأت تقضمها . وكانت مثل كل شيء آخر لذيذة هي الأخرى .

وابتسم ستيف وقال:

« الواقع أن الأرجل الأكبر والأذرع الأمامية أطيب مذاقا »

وعندما جاءت الفتاة لتقدم الحلوى ، لم يكن في طبق جولي شيء كثير من البقايا . وكان ستيف قد أحسن الاختيار بأن طلب خليط فواكه طازجة . ولم تكن جولي تظن أن بوسعها أن تتناول شيئا أكثر من ذلك ولكن الخليط كان مفاجأة أخرى ، فلم يكن مذاق أي من أنواع الفاكهة ينسجم مع مذاق نوع آخر . كانت هناك كرات من البطيخ لا تنسجم مع مذاق نوع من كور العسل . ولم يكن طعم الاناناس يتمشى مع طعم الكريب فروت . أما الفراولة فكان لها طعمها الخاص بها . وأخيرا استرخت في كرسيها وقد شعرت بالامتلاء وتنهدت وقالت وهي ترى ستيف يشعل سيجارة :

« كان كل شيء لذيذا »

« يسرني أن الطعام أعجبك ، انه لشيء جميل أن يأكل الرجل مع امرأة لا تمتعض خلال الطعام »

« لن تحتاج الى اقناعي بأن آكل كثيرا ، فقد نشأت في مزرعة ، وبالمناسبة فلقد بدا أنك تعرف جميع أنواع النباتات هنا »

وعندما أحست بشيء من التردد شجعها ستيف قائلا :

« نعم ؟ وماذا في ذلك ؟ »

« لقد أمضيت وقتا طويلا في البحر وكنت أفكر الآن كيف تسنى لك أن تجمع كل هذه الخبرة عن النباتات وعن المحاصيل مثل السكر وغيره ، مما رأيته في مستعمرتك ؟

وابتسم قائلا : « لم يمض علي وقت طويل في البحر حتى اكتشفت القراءة . وربما كان ذلك بسبب الوقت الطويل الذي يجده الانسان عندما لا يستطيع أن يرى أي أثر للأرض . ولقد أصبحت هاويا للزراعة وللبستنة والجيولوجيا . بل أصبح كل شيء يرتبط بالأرض يستهويني . ولذلك فعندما قررت أن أشتري المستعمرة لم يزد الأمر بالنسبة الي عن توظيف ما تعلمته بنفسي مع شيء من التفكير بالاضافة الى بعض المحاولة والخطأ . حتى وصلت الى ما أنا عليه »

« أليست الفلاحة عملا صعبا ؟ »

وضحك وقال :

« ولكن ألا تثقين في قدرتي على القيام بالأعمال الصعبة ؟!»

وابتسمت بطريقة خبيثة وقالت :

« لقد تذكرت أول مرة تقابلنا فيها وأخبرتني أنك ممن يتحمسون بشكل كبير لفلسفة اللامبالاة التي يعتنقها الكاجون »

« إن لها مزايا . فبعض الناس يأخذون الحياة بطريقة جدية أكثر مما ينبغي . والتوصل الى المتوسط في الأمور يكون صعبا في بعض الأحيان إنني أعجب بحماستهم المرحة وتقبلهم للأمور التي لا يستطيعون تغييرها »

« لقد نسيت خيالهم ، وقد قصصت علي حكاية جراد البحر »

وأومأ ستيف موافقا وقال : « إن لهم قصصا خيالية أخرى كثيرة لاتقل شاعرية . وعلى سبيل المثال هناك قصة عن ماري انطوانيت بعدما قتلت على المقصلة . كان ابنها الدوفين ووريثها على العرش قد تم تهريبه الى خارج فرنسا بواسطة أنصار الملكية من سكان لويزيانا ، واستقر به المقام في النهاية في الولايات المتحدة وأصبح من مواطنيها الذائعي الصيت »

وخمنت قائلة : « جان لافيت ، على ما أظن ؟ »

« لا وإنما جون جيمس أودبون . رسام الطيور المشهور »

ولهثت جولي قائلة : « ألم يكن ذلك ابنا بالتبني ؟ »

« يذكر التاريخ أنه ولد من زواج غير شرعي رغم أن أباه قد تبناه قانونيا ،

ولكن الأكاديون يقولون أنها قصة مختلقة لحماية الدوفين من انتقام الثوار »

ونفض ستيف الغبار من سيكارته وتابع :

« إنهم يقنعونك بأن السجلات التي تقر بوجود اودبون قبل اختفاء الدوفين هي مزورة كليا لإخفاء شخصيته الحقيقية حتى لا تعرف »

كانت أصابعها تتجول حول فنجان القهوة وقالت :

« إنه من نوع الإثارة لو كانت قصة حقيقية »

وعندما ساد الصمت المائدة وعاودت جولي التحديق في فنجانها سألها ستيف : « فيم تفكرين الآن ؟ »

كان هناك شيء من الخبث في الابتسامة التي ارتسمت على فمها وقالت

« كان هذا اليوم شيئا أكثر أحب أن أعيشه دائما »

« ورفيقك في هذا اليوم هل كان هو الآخر شيئا أكثر كذلك ؟ »

كانت سحابة من دخان السيجارة غطت ملامحه بحيث لم يكن في وسعها أن ترى وجهه بوضوح . وقالت بهدف اغاظته :

« ذلك البربري ! في امكانك أن تطلق عليه ذلك »

وابتسم ستيف ابتسامة عريضة وسحق سيكارته في المنفضة قبل أن تحمل نظرته لهيب شوقه اليها عبر المائدة التي تفصل بينهما وقال :

« من حسن حظك أننا في مطعم عام وأن هناك مائدة تفصل بيننا »

وتقوس فمه داعما التهديد الساخر الذي كان ينطق به . وأسرعت دقات قلبها وهي تتخيل ستيف يمطرها بالعناق ومد يده لتحكم القبض على أصابعها التي كانت تعبث بفنجان القهوة الفارغ . وأحست من خلال قبضته الرقيقة التي كانت تجمع بين الخشونة والعناق في آن واحد بتيار كهربائي عال ينطلق خلالها مشعلا طاقة مختزنة في داخلها وهو يقول :

« هل قلت لك اليوم . كم تبدين جميلة ؟ ! »

وعلقت وهي تضحك : « بما في من نمش وسواه ؟ »

كانت مقتنعة بأنها جذابة الى درجة عالية لا تستحق ذلك الاطراء الكبير .

« لقد رأيت العديد من النساء الجميلات ممن لهن نمش ، ولا أستطيع أن أعفيك من الاطراء الذي أوجهه اليك بصدق كامل .

أنني أحسد الشمس التي طبعت على وجهك تلك القبلات العديدة وجعلتك دائما تشرقين في هذا القدر من الأشعاع »

« وهل في وسع أي فتاة أن تعرض نفسها للشمس لتحظي بمثل هذا الاطراء ؟ ! »

وهزت رأسها لتتحرر من سحره الذي كان يسيطر على كل حركة وسكنة منها . وسحب يده برفق وهو يقول :

« أراك تجدين أن تغيير الموضوع هو أنسب رد »

وأشار الى فتاة المطعم لتحضر قائمة الحساب وسألته :

« ماذا تعني ؟ »

« أعني أن علي دائما أن أطفيء النيران التي تشعلينها وكأنك لا تحسين ما بي ! »

وكانت نظرته تشعل النار فيها . وتتركها وهي تعرف تماما ما كان يعنيه .

١١ ـ المنعطف

عندما طلب ستيف جولي في اليوم التالي كانت قد غادرت المنزل منذ وقت قصير لقضاء بعض الحاجيات الشخصية في المدينة ، فترك لها رسالة لدى السيدة لوبلان بأنه سيحاود الاتصال تلك الليلة . وأسفت جولي كثيرا لعدم وجودها وتلقي الرسالة بنفسها . ولكن كان عزاؤها أن الأمل مازال قائما وأن كلفها الانتظار يوما كاملا .

كانت لاتزال بحاجة الى أن تتخذ قرارا فيما تعمله طوال اليوم ، ولم يكن من دأبها أن تقبل بسهولة الجلوس بلا عمل . وبدا لها أن أسلم طريقة لقضاء الوقت حتى يحين المساء أن تشغل نفسها بالسياحة رغم أن الفكرة لم تكن مثيرة . وكان هناك مكان قريب لم تزره بعد وهو حدائق رب فان ونكل في غرب أيبيريا .

كانت الحدائق الغناء على الطراز الأنكليزي تبدو باردة اذا قورنت بحدائق الغابة في جزيرة افري . ولكنها كانت هنا من دون رفيقها . وتأكدت أن لذلك دخلا كبيرا في نقص حماستها . ونظرا الى شدة الحرارة والرطوبة قررت أن تتناول شرابا باردا في رحلة العودة وهي تخترق مدينة تيوايبيريا .

وتبينت أنها بمحض الصدفة أو بإيحاء لاشعوري جعلت سيارتها الفولكس واغن تنتظر قريبا من المتجر الذي طلب منه ستيف شراء القماش اللازم لتنجيد الأريكة والكراسي .

ودخلت جولي المتجر استجابة لدافع ساذج . وتعرف عليها فورا البائع الذي قام بخدمتها في المرة السابقة وأوضح لها أن الطرود وصلت منذ قليل في ذلك الصباح وعبر عن سعادته لمجيئها في الوقت الذي كان يعتزم الاتصال بالسيد كاميرون . وعرض عليها أن تأخذ القماش معها فقد دفع ثمنه من قبل .

وترددت بعض الشيء خشية ألا يرتاح ستيف الى ذلك التصرف .

واحتاج الأمر الى بعض الجهد لإدخال القماش بحجمه الكبير داخل السيارة . وتبين لجولي بعد ذلك وهي تحتسي عصير الليمون في أحد المطاعم أنها ضيعت وقتا كبيرا في متجر القماش . وعادت الى السيارة وهي ترجو ألا تكون سببا في تأخير موعد العشاء لأسرة لوبلان كما حدث في الليلة السابقة عندما تأخرت هي وغي .

ووصلت جولي بالفعل في وقت يسبق موعد الطعام بكثير . وعرفت أن ستيف طلبها قبل أن تصل ، وأحست بشيء من الاحباط والغضب من نفسها لأنها تغيبت ذلك الوقت الطويل في الخارج ولم تجد لديها شهية للطعام . وبدأت تتساءل : هل يخطر لستيف مثلا أنها كانت تقصد مضايقته ؟ لم يذكر ستيف في المرة الأخيرة أنه سيعاود الاتصال بها . ماذا يحدث لو أنه لم يتصل ؟ وأخذت تعاون السيدة لوبلان في حمل الطعام الى المائدة وهي تندب سلوكها الذي جعل المكالمة تفوتها . وفكرت في الاتصال به ولكن الهاتف موصل رديء أحيانا وقررت أن تقود سيارتها الى كاميرون هول تلك الليلة ذاتها مهما بدا ذلك تصرفا جريئا ، خاصة أنها تستطيع أن تشفع اعتذارها الى تسليم قماش التنجيد .

ولم تخبر جولي السيدة لوبلان بشيء سوى أنها خارجة وسوف تعود في وقت متقدم من المساء . وكان الغسق قد استسلم الى حلول الليل عندما جلست وراء عجلة قيادة سيارتها ، ولمحت ميشيل عائدة بسيارتها من المدرسة حيث أحضرت بعض الأوراق التي نسيتها هناك واضطرت جولي الى التريث حتى تقف سيارة ميشيل في مكان الانتظار ويخلو لها الطريق للخروج .

وصاحت ميشيل تسألها :

« هل تعتزمين الخروج ؟ »

وأجابت دون أن تعطي مزيدا من الإيضاح : « نعم »

ولوحت ميشيل قائلة :

« احترسي فالضباب كثيف الليلة »

تركت جولي مدينة سانت مارتنفيل واتخذت طريقها خلال الريف ، وتبينت أنها لم تع تعليق ميشيل حول الضباب ما يستحقه من اهتمام . فقد كان الضباب يلتف حولها بشكل كثيف لدرجة أنها اضطرت الى خفض السرعة

أدنى حد ممكن ، وعجزت الأضواء العالية في السيارة حتى عن إن تمكنها من رؤية المستنقع الممتد على طول الطريق بشكل واضح . بل لم تستطع تلك الأضواء أن تكشف الرؤية لأكثر من أقدام قليلة أمامها . وتكاثفت الرطوبة على الحاجب الزجاجي لتزيد من صعوبة الروية . واعتمدت على غريزتها في التعرف على تقاطع الطرق والطريق المؤدي بها الى الحارة الترابية المؤدية بدورها الى المستعمرة .

كان الوقت يمر ثقيلا شأنه شأن الفولكس واغن ذاتها على مدى الطريق تصورت جولي أنها ضلت الطريق وبدأ الآلم في أصابعها من طول ما كانت تضغط بها على عجلة القيادة . وشعرت بضربات الصداع في مؤخرة رقبتها وبالام في عينيها من كثرة التحديق في الحجب الرمادي الذي كان يحيط بها . وأحست بصيحة يأس تحتبس في حلقها وظنت أنها ضلت الطريق بالفعل عندما لمحت لافتة بيضاء صغيرة قرب حافة الطريق كان من الصعب قراءة ما كتب عليها بسبب الضباب المتكاثف حولها . وأوقفت السيارة تماما :

« وترجلت منها تاركة محركها يدور . ونظرت الى اللافتة عن كثب ووجدت العبارة : طريق خاص .. ممنوع التجاوز .

كانت العبارة تعلن عدم الترحيب ومع ذلك أحست ازاءها بالاطمئنان . لقد نجحت بمعجزة في الوصول . ورغم ذلك كان أمامها ربع ميل الى المستعمرة . وغدت المشكلة أنها كلما اقتربت من المستعمرة ومن الرافد على الجانب المقابل زادت كثافة الضباب . ولم يكن هناك أمل في أن ترى المدخل ببواباته الحديدية . واضطرت الى أن تخمن المسافة وأن تستكشف المدخل سيرا على الأقدام معتمدة على كشاف ضوئي كان معها .

ولم تخط أربع خطوات من السيارة حتى تبينت شكله الغريب المستدير وساعدها لونه الأحمر في الوصول اليه . وخطت الى الأمام خطوتين وتنشقت أنفاسها بعمق وقد أطبق الضباب كليا على السيارة وأسدل فوقها ستارا يحجبها عن الرؤية . وأخذت تشق طريقها في بطء شديد على طول المستنقع تبحث عن القنطرة المؤدية الى البوابات وهي تحاول أن تخلص نفسها من الأفكار المقلقة خشية أن تضل الطريق في تلك السحابة السوداء الرمادية .

وكادت تضل الطريق الى البوابات في ذلك الظلام الكثيف الضباب ووجدتها مغلقة ولم يكن شعاع الكشاف الضوئي يذهب الى أبعد من البوابات

الحديدية بمسافة كبيرة بسبب الضباب ، ووضعت يديها على القضبان الحديدية الباردة الرطبة في شيء من التردد ، وبدأت تهزها لتستطلع مدى احكامها . وبدا الجرس المتدلي من العمود وكأنه أخرس بلا رنين ، ومع ذلك وقفت تنتظر قبل أن تتسلق القضبان الحديدية . وكان آخر ما تتمناه أن ترى كلب الرعي الأسود الألماني في ذلك الطقس . ولكن حتى ذلك الكلب لم يخرج للترحيب بها .

كان من السهل أن تتسلق البوابة وبدت الأشجار والشجيرات على الجانب الآخر بشكل ينذر بالسوء على جانبي الطريق الضيق . وخشيت أن يثب الكلب في أي لحظة بأنيابه البيضاء التي تلمع في الظلام . ولم يكشف الضوء الصادر عن الكشاف الذي كان معها سوى أغصان البلوط الضخمة والطحالب الأسبانية التي كانت تتخذ أشكال ظلال كثيفة .

وبدأ ضوء خافت يتراءي لها من الغارسونييرة وزاد توتر أعصابها عندما جاء من الردهة الضيقة صوت نباح خفيف . وتبينت جولي أن الصوت كان أتيا من الباب الداخلي . ووقف الكلب أمامه كأنه يحرسه وصاحت تنادي :

« ستيف ! »

وزمجر الكلب كأنه قد يجيب ولكنه لم يتحرك نحوها . وكررت النداء ، وجاء جرس صوتها غريبا في أكناف الصمت . وخطر لها أنه لو كان ستيف في الغرسونييرة لسمع صوتها بالتأكيد .

وبدا الكلب قد أنس اليها لأنه لم يبد أي اعتراض عندما بدأت تخطو باتجاه
حل . وكانت لاتزال تتردد في السير أمامه نحو الباب وخاطبته قائلة :
أين سيدك يا بلاك ؟ »

: الكلب يهز ذيله تعبيرا عن الود . وخطت جولي خطوة جريئة نحو الباب ولكن الكلب سرعان ما أطلق زمجرة تنبيء عن التهديد . وتوقفت جولي وأخذ الكلب يهز ذيله من جديد وكأنه قد حدد لها نطاق حركتها فسمح لها بالوقوف في الردهة أما الغارسونييرة فلم يسمح لها بالدخول اليها ، ولم تحاول أن تقنعه بالسماح لها أكثر من ذلك

« هل بإمكاني أن أنتظر ستيف هنا ؟ »

كان من العبث أن تسأل الكلب وهو لا يستطيع أن يجيب ولكن أعصابها المتوترة بسبب الضباب والسكون جعلتها تفعل ذلك . وأحست بشيء من

الارتياح وهي تسمع صوتها وأن هناك من تتحادث معه .

كانت الرطوبة الساخنة قد بدأت تخترق ثيابها وبدأت تحس بالألم في عظامها وشعرت برجفة وأخذت تدلك ذراعيها بقوة وهي تنظر في قلق وخوف حولها . لم يكن هناك أثر لستيف . وبدت فكرة العودة الى السيارة والرجوع بها الى بيت لوبلان في ذلك الضباب شيئا مفزعا .

وجاء صوت ستيف من الطرف البعيد للردهة الضيقة في شيء من التأنيب يقول : « ماذا تفعلين هنا ؟ »

وجاء ردها مضطربا : « لقد جئت لأراك وكدت أقتنع بأنك لست هنا »

واقترب منها والغضب يتطاير من عينيه ، لقد توقعت منه أن يعبر في دهشة أو عن فرحة بها وكان آخر ما توقعته أن تراه غاضبا ، وقالت :

« لقد وصل قماش تنجيد الأريكة والكراسي اليوم . كنت في نيوأيبريا وتوقفت هناك . ولقد تركت القماش في السيارة . لم أكن مرتبطة بشيء الليلة وفكرت أن أحضر القماش »

وسألها : « كيف وصلت الى هنا ؟ »

وأجابت في وهن وهي تستسلم لنظرته المحدقة في استغراب :

« لقد حضرت بسيارتي ، لم أكن أتوقع أن يكون الضباب بهذا السوء حتى خرجت من المدينة »

وأخذت ترتعد مرة ثانية ولم يكن ذلك بسبب البرد فقط وواصلت تقول :

« كنت قد وصلت الى هنا بالفعل وإلا لكنت رجعت . أكاد أحس أن الرطوبة سرت اليك كذلك »

« ولماذا لم تدخلي الى البيت حيث الدفء ؟ »

« لم يسمح لي كلبك بتخطي المدخل »

قالت ذلك وهي تحس بشيء من الضيق لسلوكه الغريب تجاهها .

ونظر ستيف الى الكلب الذي يجلس في الخارج كما لو كان قد نسى أنه يشتي قليلا من الرطوبة . وأمرها في حدة وهو يشير الى المدفأة :

« أجلسي الى جانب النار حتى أحضر سيارتي البيك آب فلها مصابيح خاصة للضباب . أما عن سيارتك فسأحضرها لك صباح الغد »

« أشكرك على سرورك الزائد لرؤيتي »

قالتها في سخرية وهو يتجه الى الباب ، وكان أسفل ذقنها يرتعد بينما

كانت الدموع تلتهب في مقلتيها ، وحدق فيها قائلا : « ماذا تعنين ؟ »
« إنها لوعتي . أقود السيارة طوال الطريق حتى أصل الى هنا ولا أجد منك حتى كلمة ترحيب أو مجرد استفسار عن حالي قبل أن تحزمني كبضاعة لتحملني الى البيت »
« اذا كيف حالك ؟ كيف حالك مرة ثانية أيتها الغبية الصغيرة التي لاتحسن التفكير ! أيتها المخبولة ! »
كانت تلاحظ بجسدها المرتجف وهو يتنشق أنفاسه ليسيطر على غضبه . وأخذ ينظر اليها في صمت ويداه على مؤخرة ظهره . وهمست قائلة وهي تعجز عن مواجهة عينيه اللتين تشيران اليها بالإتهام : « أكاد لا أفهم ! »
وأجاب في كآبة :
« إن هذا شيء واضح . كم سيارة مررت بها في طريقك الى هنا ؟ »
وأحست جولي بأنها تتضاءل أمامه وقالت : « ولا واحدة »
« ذلك لأن أي شخص لديه ذرة من العقل لايمكن أن يخرج في مثل هذا الضباب »
« ولكن ميشيل كانت عائدة من الخارج عندما اتخذت وجهتي الى هنا ولم يكن يبدو عليها القلق »
« لأنك لم تخبريها عن وجهتك . هل قلت لها أنك آتية الى هنا ؟ لو أنك فعلت ذلك لحذرتك من القدوم »
« ولكنها لم تحذرني . وها إنني هنا ، ولا ينبغي أن تعاملني بهذه الوحشة »
« كان من الممكن أن تنقلب سيارتك في مستنقع أو تصطدم بأحد أعمدة الهاتف وتتهشم . ماذا تنتظرين مني ازاء ذلك ؟ »
وهمست قائلة : « لم أكن أظن أنك تهتم بي الى هذا الحد »
وقطع ستيف المسافة بينه وبينها في سرعة خاطفة وامتدت أصابعه لتنشب في عظام ذراعيها ورفعها الى أعلى وهو يتمتم : « أهتم ؟ ! »
واحتبست كلماته في شعرها البني المسدل على فمه واعترضت في وهن قائلة : « انك تؤذيني »
كان اقترابه منها قد أفقدها الاحساس بالالم حيث كانت أصابعه تضغط على بشرتها .
« انك تستحقين ذلك ، وأقل ما يمكنني أن أفعله هو أن أثني جسدك على

ركبتي أو آخذك بين ذراعي »
وحدقت جولي في وجهه وقالت :
« اذا كان هذا شعورك فلماذا اذن تريدني أن أعود ؟ »
« هل تفضلين البقاء هنا حتى ينقشع الضباب ؟ سوف تظل الحال كذلك حتى صباح الغد على الأقل »
« كلا لا أستطيع . فقد أحسست بأنني لم أرك منذ مدة طويلة . وفاتني مكالمتك هذا الصباح ، ثم مرة ثانية في فترة ما بعد الظهيرة . كنت أريد أن أراك فقط »
« وكنت أنا أيضا أريد أن أراك ولكن ليس هنا »
« ولكن ما الفرق ؟ »
« اذا كنت تريدين أن أشرح لك فهذا يعني أنك أكثر سذاجة بكثير مما كنت أظن »
« إنني لا أستطيع أن أتحمل مشاعري تجاهك ! »
« إنك تقولين كلاما لا معنى له يا جولي »
« إنني أتحدث الى انسان متحجر . هذا هو كل شيء »
وقبل أن تجد الفرصة للإعتذار عما بدا منها وجدت نفسها بين ذراعيه وهو يقول : « ليتني كنت متحجرا »
وضمها طويلا اليه . وحملها بين ذراعيه ولم تكن تتبين الى أين يأخذها . وتغير وقع خطواته وأدركت بعد لحظة أنه يصعد بها الدرج ، فدفعته بقوة بعيدا عنها وهي تقول : « الى أين تأخذني ؟ أتركني .. أتركني »
وخفضت قبضته الوحشية صوتها الواهن وهي تلتمس منه أن يتركها دون جدوى . لكنه مالبث أن أعادها الى وضعها واقفة على قدميها .
كان ضوء الدرج الخافت يرسل بعض أشعته على الحجرة التي كانا يقفان فيها ، واستطاعت أن تتبين أنها كانت حجرة نومه . وتنهد ستيف في نعومة وقال : « أريدك يا جولي . لا أستطيع أن أنكر ذلك »
« لماذا »
« لأنك امرأة وأنا رجل . هل تريدين شيئا أقوى من ذلك ؟ ! » وأجابت جولي في بطء وحزم بعدما رفعت رأسها الى أعلى لتتفحص ملامحه المقنعة ، وعلى وجهها بدت نظرات حبها الحقيقي له :

« نعم يا ستيف يوجد ما هو أقوى من ذلك »

« انك تقولين ذلك لأنك مازلت شابة صغيرة ، ولكنك لم تجربي كيف يتقلب الانسان »

« هل أنت متقلب ؟ وهل تعتزم أن تنساني ؟ »

« لا أقول أنني كذلك تماما لأنك شخصية متميزة طبيعية وسخية »

« أظن أن من واجبي أن أشكرك على هذا المديح »

« لم أقصد أبدا أن أؤذيك يا جولي . أنني سأخذك الى بيتك الآن »

« لا تأسف يا ستيف . لقد أخبرتني الخالة بريجيت ذات مرة أن الحب الحقيقي شيء نادر ، وقليليون هم الذين يعثرون عليه لأن معظم الناس أنانيون لا يستطيعون أن يعطوا من أنفسهم إلا بطريقة مصطنعة »

وسألها في برود : « وهل تعتقدين أنني واحد من هؤلاء ؟ »

واعترفت جولي في قرارة نفسها أنه لم يكن واحدا من هؤلاء بالرغم من أن أقواله وتصرفاته تؤكد ذلك . وبدا الاضطراب واضحا على وجهها ، وسألته وهي لا تدري أنها كانت تتكلم في لهجة استعطاف :

« قل لي .. لماذا عاملتني بالطريقة التي تصرفت بها الآن كما لو كنت غانية أو شيئا من هذا القبيل ؟ ! »

« تريدين الحقيقة ؟ لأنك كنت تطلبين ذلك بسذاجة »

وصاحت في غضب : « لم أطلب ذلك »

كانت على وشك أن ترفع يدها لتصفعه ، ولكنه كبل معصمها ليمنع مثل ذلك الهجوم .

« لم تطلبيه بطريقة شعورية »

« اذا لماذا حاولت أن تستغلني ؟ »

« استغلك ؟ ! يا لها من كلمة قديمة لا يستخدمها إلا المتخلفون »

وهزت رأسها في حيرة وقالت :

« أكاد لا أفهمك . تتصرف في وقت وكأنك تهتم بي وفي لحظة أخرى تبدو وكأنك بلا احساس ولا عاطفة تجاهي »

وانضمت شفتاه في خط مقطب وهو يحدق فيها دون أن يجيب . ولمحت عيناه تضيقان ولاحظت مرة أخرى كم كانت رموشه طويلة وكثيفة . وظل يحدق بطريقة ناعسة من خلال نظرات عميقة وقال :

« ليس هذا هو الوقت ولا المكان للحوار الذي تريدين أن تجريه »

وسار أمامها متجها نحو الدرج ، وعندما وصل الى منتصف الدرج نظر اليها وقال : « هيا سأوصلك الى البيت »

وترددت جولي بعض الشيء اذ خطرت لها فكرة أخرى ، وقالت في صوت مضطرب : « ستيف .. هل تستغلني لتنسى .. لتنسى كلودين ؟ »

وقطب قائلا : « ما الذي وضع هذه الفكرة في رأسك ؟ »

« لقد سمعت .. »

ثم توقفت وهي تعرف أن أي ذكر لأسم غي سوف يجعله يعلق بطريقة ساخرة وواصلت قائلة :

« سمعت أن الرجال يبحثون أحيانا عن نساء أخريات لينسوا امرأة معينة »

وسألها في هدوء مشوب بالانذار :

« أتريدين أن أحملك مرة أخرى لأهبط بك الدرج ؟ »

وألحت في السؤال :

« هل صحيح . فانه لشيء مجد ولكنه لا ينطبق على هذه الحالة ، على الرغم أن الاحتمال المضاد قائم »

« هل تعني أنك تريد أن تنساني ؟ »

وتنشقت جولي أنفاسها فيما شعاع من الأمل يضيء عينيها وتابع قائلا :

« وخاصة عندما تختبرين صبري كما تفعلين الآن . لأخر مرة .. سأوصلك الى المنزل .. هيا .. اهبطي ! »

وشعر ستيف أنه ازاء حالة من حالات الاكتئاب الغريبة .

كانت جولي تتذكر في سرعة ما صاحب تلك اللحظات الانفعالية التي وقعت بينهما قبل ذلك بوقت قصير لدرجة أنها كانت تصر على مزيد من الحديث حولها . بينما أوضح لها أنه يريد أن يستعيدها . وكانت مشاعرها تجاهه مختلفة لدرجة أنها لم تكن واثقة من حقيقة تلك المشاعر . لم تكن بالفعل تعرف حقيقتها ، بل زاد شكلها . كان شيئا معقدا لا يمكن بخبرتها المحددة أن تستطع كنهه ، وأدركت أنه كان يعرف ذلك أيضا .

وتمكنت مصابيح الاضاءة في السيارة البيك آب أن تكشف الرؤية بطريقة أفضل ، وكانت السرعة التي تسير بها أبطأ من المعتاد ولكنها كانت أسرع مما كانت تقود به جولي سيارتها في رحلة القدوم . كان ستيف يوليها كل

اهتمامه ولكنها بدت وهي تجلس على الكرسي المجاور له جسما بلا حراك .
وعندما توقفت السيارة أمام بيت لوبلان ترك ستيف المحرك دائرا ليوحي لها أنه لا مكان للوداع الطويل . وقال لها :
« سأحضر سيارتك في الصباح وقد يكون ذلك قبل أن تستيقظي من النوم»
كانت كلماته الخشنة تدل على أنه يستعجل الانصراف . ومدت جولي يدها الى مقبض الباب ، ووجدت يده تمتد الى ذراعها لتسبقها وهو يقول :
« يجب أن أذهب الى نيوأورليانز غدا لقضاء عمل ، وسأبقى هناك أياما »
وسألته وهي تعرف أن نغمة صوتها كانت تعكس المشاركة :
« ماذا تريد أن تقول لي ؟ »
ولكن برود ستيف كان قد ساءها وأرادت أن ترد عليه بالطريقة ذاتها .
واكتفى ستيف بأن اصطنع تنهيدة غاضبة ومد يده ليفتح الباب وهو يقول :
« لا أدري .. طاب مساؤك يا جولي »

١٢ ـ كان العذاب

« أين كنت ؟ »
كانت جولي قد أسرعت الى داخل المنزل وصعدت الى قرب منتصف الدرج عندما فاجأها سؤال كلودين وجعلها تتوقف فجأة . كان كل ما تريده أن تلوذ بحجرتها لتذرف الدموع التي تحرق مقلتيها .
وأجابت : « في مهمة .. اذا كان أمرا يعنيك ! »
وسخرت كلودين قائلة :
« لابد أنها كانت مهمة مناسبة مكنتك من جعل ستيف يعيدك الى هنا »
كانت جولي على وشك أن تكمل صعود الدرج، ولكن الفتاة ذات الشعر الأسود في لون الغراب ، واصلت وعيناها تلمعان مثل الفحم المتقد :
«من المؤسف أنك لم توجهي اليه الدعوة للدخول . كان بودي أن أتحدث اليه في أمر ما . ولكن يبدو أن ذلك سوف يتأجل الى الغد »
« سيكون عليك الانتظار مدة أطول »
أجابت جولي بطريقة تشبه الطريقة التي تحدثت بها كلودين ، رغم أنها لم تكن قادرة على مواجهة عيني المرأة الأكبر سنا وواصلت :
«إن ستيف ذاهب غدا الى نيوأورليانز وسيمكث هناك حوالي يومين »
وانطلقت جولي تصعد الدرج بينما واصلت كلودين تقول :
« يا لحسن الحظ ! »
كانت رقة العبارة التي أطلقتها أكثر إغاظة من ألفاظ السخرية التي تحدثت بها فيما سبق .
كانت الفولكس واغن الحمراء تقف في مكانها السابق خلف المنزل في الصباح التالي عندما نهضت جولي من الفراش وكانت قد نامت نوما متقطعا

وبدا ذلك في النظرة المقطبة على وجهها وفي الدوائر السوداء تحت عينيها . فكم حاولت أن تجعل نفسها تدرك كيف تصرفت بطريقة غير منطقية ، ولكن لم يكن في قلبها مكان للمنطق . كان هناك ستيف فقط وحاولت أن تلوم نفسها لأنها عرفته مدة لا تقل عن أسبوعين ولكن كم من عاشقين وقعا في الحب ساعات قليلة ، ولم يكن حبهما أقل قوة أو أقل دواما .

وتساءلت عما يشدها اليه : هل الجاذبية الجسدية أم الافتتان أم الاعجاب برجل أكبر سنا وأكثر خبرة ؟ لعل كل صفة من هذه كانت السبب ولكنها كانت تعلم أن لا شيء من هذه جميعا ، تماما كما عرفت من قبل أنها لم تحب جون بالطريقة التي ينبغي أن تحب بها المرأة زوجها .

لو أنها فقط فهمت ستيف ! كانت تحس به مشدودا اليها وهو يعانقها ، بل لعلها أحست بشيء أكبر من ذلك ، ربما كان يحبها بالفعل ، ولكنه بسرعة زئبقية يعلن أنه لا يؤمن بالحب وأنه لن يتزوج أبدا . هل كان يخشى الحب ؟ لم تكن تصدق أن ستيف يمكن أن يخشى شيئا وعلى الأخص ما لا يؤذي مثل الحب .

لا يؤذي تلك أضحوكة . لتنظر ماذا يفعل بها . لقد جعلها تلتوي الى عقد تحتاج الى بحار خبير ليحلها . بحار ! ! كان ستيف بحارا . هل خطر لها هذا التشابه لأن ستيف كان سبب عذابها .

وبدا الموقف كله يائسا في نظرها .

وطال اليوم في غيبة ستيف الذي كان في نيوأورليانز . وأحست بفراغ يكاد لا يصدق . وحتى لو كان هنا فلم يكن ذلك ليغير شيئا من الاحباط الذي كانت تحس به . وتذكرت جولي المأساة التي كانت تعيشها قبل أن تحضر الى لويزيانا . وبدت تلك المشكلة صغيرة الآن أمام حبها الأزلي لستيف .

كانت جولي تعرف أنها لايمكن أن تبقى حبيسة المنزل طول النهار ، وقد أبدت السيدة لوبلان اهتماما بالكآبة البادية على وجهها وهي تتناول طعام الافطار . ولم تكن تحس برغبة جادة في زيارة أي بقعة من المناطق السياحية ، وتركز اهتمامها في شيء واحد أرادت أن تنجزه وهو أن تلتقط مجموعة من الصور لكاميرون هول حتى اذا عادت الى داكوتا الجنوبية استطاعت أن تعرض على الأسرة صورا عن بيت أسلافهم .

ولكن أن تعود الى مسقط رأسها ولاترى ستيف ثانية جعلها تهوى الى

أعماق من الأسى مرة أخرى . وأخذت تتجول في الأراضي المستعمرة وكلب الرعي الألماني اليقظ دائما يسير في أعقابها . ولكن ذلك لم ينجح في رفع معنوياتها . كان ذلك رمزا للنهاية وهي تلتقط الصور كما لو كانت سترحل في اليوم التالي بينما كان لايزال أمامها أسبوع من أجازتها لم يبدأ بعد .

وكانت تعرف كذلك أنها لن تستطيع ان تنظر الى الصور دون أن تفكر في مالك المستعمرة الحالي ، ودون أن تتخيل منظره ووراءه زهور الأزاليا الحمراء في لون اللهيب والاعمدة الضخمة المستديرة .

وعادت جولي الى بيت آل لوبلان في وقت متقدم بعد ظهيرة ذلك اليوم . وكان وصولها في الوقت الذي رجعت فيه ميشيل وغي . ورغم أنها كانت تحس بالحاجة الى الاسترخاء في حجرتها فقد أحست أنه لايليق ترك ميشيل وغي وحدهما خاصة أن ميشيل وجهت اليها دعوة ودية للمشاركة في احتساء شراب مثلج . ولسوء الحظ اضطرت ميشيل الى الانسحاب لتجيب على مكالمة هاتفية وبقيت جولي وغي وحدهما . رغم حرصها على تجنب ذلك .

ونظر اليها غي في ابتسامة قصد بها اللهو من جهة والتمويه عليها من جهة أخرى ، قال : « لا تبتئسي يا جولي ! »

وسألته في عنف : «ماذا تعني ؟ »

« أرى وجهك يكتسي باكتئاب مستمر وكأنك لم تسمعي من قبل تحذيرا بأن هذا قد يحدث ! »

« لا أستطيع أن أفهم ما تعنيه . ما الذي يمكن أن يحدث ؟ »

ونهضت على قدميها في تأهب للدفاع عن النفس ، واتجهت لتطل من النافذة ولم تكن ترى العصفور الأحمر المغرد يرفرف بجناحيه حول شجرة المجنوليا .

« كلودين وستيف بالطبع ! »

وقالت بلا شعور : « ستيف في نيوأورليانز .. أليس كذلك ؟ »

وهز رأسه في حيرة وقال : « إنك حقا لا تعرفين . هل تعرفين ؟ »

وأحست بهاجس غريب يتسلل الى صدرها وسألت : « أعرف ماذا » ؟ »

« لقد ذهبت كلودين مع ستيف الى نيو أورليانز »

« لا ! »

وشهقت نفسا وأخذت تهز رأسها في شك وهي تقول :

« لا . هذا غير صحيح »

وحاصر حلقها بكاء هستيري كتمته جولي بيد منقبضة وضعتها على فمها . لقد فهمت الآن الاسباب التي وراء ما قاله ستيف الليلة السابقة . كان يحاول بلباقة أن يخبرها أنه لا يجعلها تدرك أن مشاعره ليست بالدرجة ذاته ، بل لقد ألمح الى أنه قد يستخدم كلودين لينسى جولي وكأنه يهيؤها للخبر الذي ألقى به غي الآن .

كان غي قد اقترب خلفها ووضع يديه برقة على كتفيها وهو يقول :

« إنك وقعت في حبه حقا .. أليس كذلك ؟ »

لم تكن جولي تثق في قدرتها على الكلام دون أن يتهدج صوتها بالبكاء ، واكتفت بأن أومأت بالموافقة وواصل يقول : « أنت أيتها المجنونة الصغيرة »

وراح يهزها قبل أن يحتويها بين ذراعيه وتابع :

« لقد أخبرتك أن كلودين سوف تنتصر »

وأجابت جولي بصوت مرتجف بعدما رفعت اليه عينيها المليئتين بالدموع :

« إنها لم تنتصر ! ألا تفهم ؟ إن ستيف لا يهتم بأي منا . حاول أن يقول لي ذلك الليلة الماضية »

« هل رأيته الليلة الماضية ؟ »

« نعم رأيته فترة وجيزة »

لم تكن جولي لتخبر غي أن ستيف حاول أن يغتصبها . وواصلت تقول :

« ماذا أفعل يا غي ؟ لا أستطيع أن أواجهه مرة أخرى . لا أستطيع »

وعلق غي وهو يضغط على أسنانه : « لم يكن من حقه أن يلهو بك »

« لم يعد هناك وقت للتفكير في ذلك الآن . فضلا عن أنها ليست غلطة ستيف . إنني وثقت به »

وأضافت في رزانة بعدما زال أثر الصدمة الأولى :

« أعتقد أن الوقت حان لكي أعود »

« الى داكوتا الجنوبية ؟ »

« نعم ، لقد انتهيت من مشكلة هناك لأقع في مشكلة أخرى هنا »

ومسحت الدموع عن وجنتيها ورفعت كتفيها وتابعت تقول :

« لقد كان التغيير هو العلاج انذاك ، واعتقد أنه العلاج الفعال الآن »

« ولكن مازال أمامك أسبوع آخر وفقا للبرنامج ولقد أخبرت أمي بذلك »

« أعرف خطتي . ولكن أعتقد من الأفضل أن أعدل هذه الخطة الآن »

وفي المساء على مائدة العشاء ، أعلنت جولي لأسرة لوبلان عن اعتزامها الرحيل . وانتحلت عذرا لذلك أنها تلقت خطابا من الديها ينبئانها عن مرض احدى قريباتها رغم أن ذلك لم يكن صحيحا مما جعلها تتخذ قرارها المفاجيء

ورأت أنها اذا حزمت أمتعتها الليلة وحملتها الى السيارة في الصباح فسوف يكون بامكانها أن تتخذ طريق العودة قبل رجوع ستيف وكلودين من نيوأورليانز . ولم تكن جولي وضعت في تقديرها حسابا للاعتراضات التي أثارها اميل لوبلان الذي صمم على أنها ينبغي ألا تبدأ الرحلة الطويلة دون أن يتم فحص سيارتها في أحد الكاراجات المحلية . وحاولت يائسة أن تقنعه بأنها سبق أن فعلت ذلك بعناية قبل رحلة القدوم من داكوتا الجنوبية ، وأنه لاداعي اطلاقا لتكراره ثانية . ولكنه كان صلبا عنيدا وصمم على أن جولي التي أصبحت بمثابة عضو في أسرته خلال إقامتها القصيرة ، ينبغي ألا تقوم بتلك الرحلة الطويلة في ظل احتمال حدوث أي خلل آلي في سيارتها . وعززت السيدة لوبلان كلامه بأن الغد يوم السبت وأن عطلة الأسبوع ليست الوقت الملائم للقيادة ثانية ، ولكنها رفضت الانتظار حتى يوم الاثنين . وقررت أن تبدأ رحلة العودة يوم الأحد بغض النظر عن ازدحام المرور .

وعندما حان عصر السبت كانت جولي قد أتمت حزم أمتعتها وكانت على استعداد لوضعها في السيارة . وأوصلها غي بسيارته الى الكاراج المحلي لتأخذ الفولكس واغن التي لم تحتج إلا لبعض الاصلاحات البسيطة . وحدقت جولي نحو الشاب الصغير الذي أصبح سندا لها في صمت وهي تدفع فاتورة اصلاح السيارة وسألته في صوت هاديء : « متى تظن أنهما سيعودان ؟ »

ولم تكن بحاجة الى أن توضح له أن من تقصدهما هما كلودين وستيف وأجاب : « أظن أنه لا يفضل القيادة في الظلام بسبب الضباب ، وأعتقد أنهما قد يصلان في أي وقت من الآن حتى الغروب »

وعندما عاد غي وجولي الى بيت لوبلان علما أن ستيف حضر منذ قليل لإيصال كلودين وقفل راجعا . وأحست بالإرتياح لأنها لم تضطر الى مقابلته بالصدفه . وشعرت بتعاطف الاقدار معها لأنها كانت في الكاراج تتسلم سيارتها عندما حضر ، وبذلك وفر عليها مزيدا من الارتباك . حتى كلودين لم تكن موجودة . اذ كانت دخلت الحمام بعد رحلة في الجو الرطب الحار من

نيوأورليانز . وأحست جولي بالسعادة لأنها لن تضطر الى مواجهة الابتسامة المصطنعة من الفتاة الأكبر .

كانت جولي وغي في الخارج يرتبان الامتعة في الفولكس واغن الصغيرة . عندما جاءت ميشيل الى الباب الخلفي وأخبرت جولي أنها مطلوبة على الهاتف . وسألت جولي وهي تنظر في توجس الى غي : « من المتكلم ؟ »

وأجابت ميشيل : « لم أسأله ، ولكنني أظن أنه ستيف »

وتحدث اليها غي قائلا : « هل تريدين أن تقولي له أنك مشغولة ولا تستطيعين الحضور للرد على الهاتف ؟ »

واستخدمت جولي الفرشاة في تمشيط شعرها وتنشقت نفسا عميقا وقالت

« لا .. لن يحاول زن يثنيني عن رأيي »

كان صوت كلماتها يدل على شجاعة كبيرة ، ولكنها كانت تحس برغبة في الهرب وهي تمسك سماعة الهاتف الموضوعة على المنضد في الصالة . وحدثت نفسها : تشجعي !

ثم قالت في السماعة : « نعم ؟ »

وكان في صوتها شيء من البرود وكأنه صوت من يتحدث حول العمل ، ولكن ركبتيها كانتا ترتعدان كأنهما خليط هلامي .

« ألو ستيف يتكلم . لم تكن سيارتك هناك عندما أحضرت كلودين »

وتعجبت جولي من طريقته اذ كيف يجرؤ على أن يتحدث بلا مبالاة . وأجابته بما لا يدل على شيء : « لقد سمعت أنك رجعت من نيوأورليانز »

« كانت هناك مباراة كرة قدم وكان المرور مزدحما ... وإلا عدنا في وقت مبكر »

وأحست جولي أنه ليس في وسعها أن تحتمل ذلك الحديث فقالت :

« إنني سعيدة لأنك اتصلت هاتفيا . وكان في نيتي أن أتصل بك فيما بعد لأخبرك أنني عائدة غدا الى داكوتا الجنوبية »

وأجاب في صوت خفيض لم تكد تسمعه : « ماذا ؟ »

« نعم ، إن إحدى خالاتي في المستشفى وقد كتب لي أهلي يقترحون عودتي ولقد حدث ذلك فجأة على ما أعتقد ، وهي تحتاج الى هذه العملية »

وخطر لها أنها تكرر الكلام وكأنها تحاول أن تقنعه بصحة أسباب عودتها . وعلق في جفاف :

« ولكن ذلك جاء بطريقة مفاجئة للغاية »

« نعم . حسنا . لقد أردت أن أقول أن أرحل . وهذا هو السبب الذي كنت سأطلبك من أجله فيما بعد »

وتحدث في بطء وبوضوح تام : « أريد أن أتحدث اليك يا جولي »

« اسفة ، فلدي الكثير من العمل قبل الرحيل : حزم الأمتعة وسواه . بحيث يبدو من المستحيل حقا بالنسبة الي »

وجاء صوت كلودين يقول : « هل ستيف على الهاتف ؟ »

ووضعت جولي يدها على السماعة حتى لا يصل الصوت الى ستيف . كانت كلودين تنظر اليها عبر حاجز الدرج وكانت ترتدي فستانا أخضر من نسيج وبري يصل الى ركبتيها .

وأجابتها جولي : « نعم ، إنه ستيف »

وطلبت جولي الى ستيف أن يبقى على الخط لحظة قبل أن تستدير الى كلودين وتسألها : « هل هناك شيء تريدين أن تحدثيه عنه ؟ »

وأجابت كلودين :

« نعم ، إنني لا أجد قميص النوم الأخضر ولقد بحثت عنه في كل مكان ولكن يبدو أنني قد وضعته دون قصد في حقائب ستيف . هل تسألينه ؟ »

وتذكرت جولي في شيء من الغضب والحقد ذلك الرداء الأخضر المزرق الذي يشف عما تحته والذي كان يذكرها بريش الطاووس . وهزت كلودين كتفيها عندما لاحظت مشاعر الغضب تبدو على وجه جولي ، وأخذت السماعة في هدوء وقالت : « ستيف أنا كلودين »

ونظرت الى جولي التي تسمرت قدماها على الارض بابتسامة عذبة قائلة :

« أنت تذكر قميص نومي الأخضر المزرق . أنا لا أجده وأحسبه قد اختلط مع حاجياتك ؟ هل وجدته ؟ لا .. ليس من الضروري .. يمكنني أن أحضر لأخذه غدا . جولي ؟ »

وارتسمت على وجهها علامة استفهام كبيرة . وعندئذ استدارت جولي وخرجت في بطء وتعال من الصالة الى الخارج .

لم يحاول غي أن يثر أية استفسارات حول المكالمة فقد لاحظ تعبيرا مكتوما على وجه جولي التي واصلت العمل في حزم الأمتعة في شيء من الانتقام . وأتمت وضع كل شيء داخل السيارة بما في ذلك الخرائط التي تحدد لها

الطريق في أقل من نصف ساعة . وعندما أغلقت أبواب السيارة كان الغسق الأرجواني يتصارع مع ظلمة الليل . وقد أمسى كل شيء على أتم استعداد لرحلة الصباح . ودخل غي الى المنزل قبل ذلك بدقائق قليلة ليعد بعض المرطبات .

ومسحت جولي قطرات العرق عن جبهتها واستدارت متجهة الى الباب الداخلي لتلحق به . ولم تكد تخطو خطوتين حتى انغلق الباب الداخلي ووجدت أمامها شبحا عالي القامة يقف في طريقها . وتوقفت لحظة وفكرت في الهرب لكنها لم تستطع . وارتسم على فمها خط من الكآبة وهي تسير نحو ستيف .

وكان في وسعها وهي تقترب منه أن ترى آثار التعب على وجهه ولكنها رفضت أن تجعل الشفقة تضعف من تصميمها أو من ضربات قلبها المنكوب . وبدت عيناه في الضوء المعتم في زرقة أكثر قتامة وهما تلاحظان اقترابها منه .

« ما كنت بحاجة الى أن كلف نفسك عناء الحضور »

قالتها في شيء م البرود ، وتوقفت على بعد خطوات منه وسخر منها قائلا :

« صحيح ؟ ! »

وقالت وقد جعلها الكبرياء ترفع ذقنها بدرجة أعلى قليلا مما اعتادت :

« لقد تبادلنا كلمات الوداع عبر الهاتف »

ولم يكن بحاجة الى أن يذكرها :

« ولكن محادثتنا الهاتفية قطعت »

« غير أننا كنا قد قلنا كل ما هو مهم قبل ذلك . وكانت كلودين قلقة تريد التحدث اليك »

كانت نظرته تحوم مستفسرة عبر وجهها وهو يقول :

« لقد أعدت اليها رداءها المفقود »

وواصلت تجيبه في هدوء :

« كان ذلك احتراما منك لمشاعرها . وأظن أنها ستقدر لك ذلك ، فقد كانت قلقة لهذا السبب »

« ما الذي جعلك تقررين الرحيل بهذه الطريقة المفاجئة ؟ »

« لقد شرحت لك . إن خالتي مريضة »

« أنا لا أصدقك . هل يعقل أن يسبب لك مرض الخالة مثل هذا القلق ؟ »

وانتهزت جولي الفرصة لتعزز اسباب الرحيل فقالت :

« إن الخالة بريجيت لها مكانة خاصة فهي التي زودتني بالمال للحضور الى هنا . وصلتي بها قوية للغاية ولذلك فمن الطبيعي عندما تمرض ألا أكتفي بهز كتفي كما لو كان الأمر بهذه البساطة »

وبدأ يستسلم لصدقها رغم أنها كانت ترى آثار الشك على وجهه تصارع لإقناعه بعدم تصديقها . كانت هذه فرصتها للرحيل لعلها تنقذ كرامتها دون أن تخدش .

وأوشكت على الحركة ولكن صوته أوقفها وهو يقول :

« لدي شعور بأن هناك شيئا لا تريدين أن تصرحي به »

وبلعت ريقها وقالت : « لا أدري ما هو ؟ »

وأخذت تجهد عقلها كي تكتشف ما اذا كانت هناك ثغرة في قصتها .

وواصلت تقول :

« أنا .. لم .. لم أشكرك لأنك أتحت لي فرصة التعرف على الملامح المحلية مما جعل لرحلتي مغزى خاصا »

وارتسمت على وجهه ابتسامة مريرة متسائلة ، حبست أنفاسها ، وقال :

« شيء أكثر »

شيء أكثر . العبارة ذاتها التي قالتها في مناسبة سابقة ربطتها به وواصل يقول : « لقد حاولت أن أجعل لويزيانا تتجسد في صورة حية أمامك »

لم يكن باستطاعتها أن تقول له أنه قد جعلها هي تستمتع بالحياة وأنها قد أدركت في النهاية مدى قوة أنفعالاتها كامرأة . واكتفت بأن اصطنعت ابتسامة من أعماق آلامها ، وقالت وهي تحاول أن تسير على رجليها المرتعشتين الى أول عتبة للدرج في البيت :

« لقد أتحت لي فرصة سعدت فيها برفقة شاعرية »

وقال في شيء من السخرية :

« رفقة شاعرية ممتازة كما يحدث على ظهر السفن »

وأجابت بسرعة وهي تحاول أن تزيح عن كاهلها أثر كلماته الخبيثة :

« نعم ، إنه غريب حقا كيف أن العودة الى الوطن تجعل الفتاة تعود الى عالم الواقع »

وبدت في عينيه نظرة احتقار جعلتها تشعر بالسعادة وهو يقول :

« بلا مشهد يثير الارتباك .. وبلا وعود بالحب الذي لا يبلي .. لعله أفضل كثيرا هكذا .. وأعتقد أنك سعيدة الآن كون عواطفك لم تؤد بك الى ارتكاب غلطة كنت ستعيشين نادمة بسببها »

كان ستيف يشير الى لقائهما السابق ليلة الضباب . ولكن جولي كانت تقابل كلماته بالصمت الذي لاذت به حتى لا تصرح بحبها له . ولم يكن في وسعها أن تتحمل اشفاقة عليها فقالت هامسة والدموع تتجمع وتومض في عينيها : « نعم »

« والآن سوف يكون في وسعك أن تتحدثي الى صديقاتك عن الرجل الذي قابلته بجانب الرافد »

وأدارت جولي رأسها بعيدا عن لهب الثقاب وهو يشعل سيجارته وقالت :

« لقد كانت حقا مطابقة كاملة . كيف اتضح إنك إيثان ، ثم كيف اتضح أن إيثان هو ستيف مالك كاميرون هول ! »

ووافقت في صوت متزمت ، فقد كانت تعرف تماما أنها لا يمكن أن تحكي لأي شخص القصة الكاملة ولو على سبيل الثرثرة .

وبدأ ستيف يتحدث وكأنه يخاطب نفسه قائلا :

« أعتقد أنك كنت على حق عندما قلت أنه لا يوجد شيء آخر يمكن أن يستمر الحديث بيننا حوله .

ولقد بدأت أفكر في أنني ينبغي أن أندم على اليوم الذي دعوت فيه نفسي الى مشاركتك الوجبة التي كنت تأكلينها يوم الرحلة »

وكانت رغم الظلام تستطيع أن تتبين أنه كان ينظر اليها ومضى يقول :

« أعتقد أن هذا هو الوداع اذا »

ومد يده نحوها ، وترددت في أن تمد يدها اليه . فقد كانت تعرف أن ملمس يده لن يزيدها إلا رغبة متأججة في أن تلقي نفسها بين ذراعيه .

ولكنها استطاعت السيطرة على نفسها وهي تصافحه ، وقد شعرت بدفء قبضته القوية يسري الى أعلى ذراعها وخلال جسدها . وإن كانت لم تخف الألم البارد الذي يخفق في قلبها والذي جعل صدرها يحس كما لو كان على وشك أن ينفجر . وقالت في رقة : « وداعا ستيف »

وأحست بأن لفظة الوداع حكم قد صدر عليها بأن تعيش وحيدة طوال حياتها . وتمتم ستيف في سخرية قبل أن يطلق يدها :

« أيتها العصفورة .. أيتها العصفورة .. طيري وعودي الى وطنك البعيد . رحلة موفقة يا جولي »

كان الضوء المنبعث من المنزل يجعل كل شيء في الخارج يبدو أكثر قتامة . وبدت الأشجار كنسيج العنكبوت أمام أول نجوم بدأت تتلألأ . وبدا ستيف كشبح قاتم قبل أن يبتلعه الظلام ويختفي عن الانظار .

كان في وسع جولي أن تعرف الآن لماذا لم يتحطم قلبها كليا ، لقد تصورت أن ستيف سوف يصر على عدم تصديق قصتها الهزيلة ويضمها بين ذراعيه بقوة ليخبرها أنه يحبها لدرجة تجعله يمنعها عن الرحيل . ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بأن قال لها . رحلة موفقة .

لقد كان سعيدا بذهابها . وأراد أن يصدق قصتها . وكان سعيدا كذلك عندما اعتبرته مغامرا ومنطقيا . كانت تلك هي الحقيقة ، بغض النظر عن النتائج بالنسبة الى قلب تحطم . وارتعدت جولي وأحست فجأة ببرودة قاسية ومخيفة . وبالوحدة والفزع .

١٣ ـ شيء ما أكثر

لم تعد جولى الى مزرعة والديها بل اتجهت الى شقة خالتها بريجيت عند شلالات سيو. وبعد العناء الذى قاسته فى رحلتها الطويلة الى داكوتا الجنوبية حيث رفضت أن تسمح لحزنها بأن يعبر عن نفسه من أى منفذ، كان من الطبيعى لدى رؤية خالتها أن تطلق العنان لانفعالاتها ودموعها. وتحملت خالتها بريجيت، بطبيعتها العملية، مسؤولية التصريح بما لم تستطع جولى أن تصرح به. أنه كان من المستحيل بالنسبة اليها أن تعود لتعيش فى منزل أبويها.

ولم تمض أيام قليلة حتى حصلت جولى على وظيفة مسؤولة عن التغذية فى مؤسسة خاصة للتمريض. وكان المرتب ضئيلا للغاية ولكنها لم تكن تهتم كثيرا بالنقود، فقد كانت بحاجة الى العمل لتشغل تلك الساعات المليئة بالذكريات المؤلمة. وأصرت خالتها على أن تشغل جولى غرفة النوم الثانية فى الشقة، ولو لفترة محدودة، حتى تستطيع الاعتماد على نفسها عاطفيا وماديا.

وكان من حسن حظ جولى أنها نزلت لدى خالتها بريجيت التى كانت تطمئن لى مأكلها وخروجها الى العمل فى الموعد المناسب، وكانت تتخذ القرارات التى لا تستطيع جولى أن تهتم بها.

وكان الأسبوع الأول نموذجا سارت على منواله الأسابيع التالية، فكانت جولى تنهض فى الصباح وتذهب الى العمل وتعود الى البيت وتتناول طعام العشاء الذى تعده بريجيت، وتعاون فى أعمال المطبخ وتقرأ أحد الكتب أو تشاهد التليفزيون ثم تذهب الى الفراش. وعندما حانت اعياد الميلاد بذلت جولى أولى محاولاتها للمشاركة فى بهجة العيد لعلها تتخلص من العبء الذى جعل حياتها أشبه بالغيبوبة. وبذلت جهدا كبيرا لتختار الهدايا الملائمة لكل عضو من أفراد الأسرة. وكانت أصعب الهدايا فى الاختيار هى هدية

أبيها، فعندما كانت تدخل قسم الرجال فى أى محل تتخيل كيف يمكن أن يبدو ستيف فى أى من الأزياء. وحرصت الخالة بريجيت على ان تشجع فيها الحرص على الاحتفال بالعيد فأشركتها فى شراء مستلزمات من الزينة وان بدت هذه تافهة فى السنوات السابقة. فقد كانت عادة تقضى العطلات المدرسية فى المزرعة. أما هذه السنة فقد قررت أن تقضيها فى الشقة مع بريجيت اذ لم يكن لها سوى يوم عطلة واحد من العمل.

وكانت جولى فى كثير من الاحيان تبدو مبتهجة تماما ولكنها كانت أيضا تتبادل مع خالتها نظرة معينة تتبعها دائما تنهيدتان صامتتان. لم تكن لتخدع نفسها أو خالتها، فقد كان ستيف لا يزال يحتل المكان الوحيد فى قلبها. كان هناك حفلة ميلاد صغيرة للمرضى فى مؤسسة التمريض، وكان معظمهم من المسنين. وكانت جولى قد تطوعت للخدمة ساعات أطول وللمعاونة فى أعمال التنظيف. وراودها شعور متزايد بالاحباط عن ذى قبل وهى تحس بترانيم الميلاد تتردد فى أذنيها. وربما كان ذلك لأن كثيرين من المرضى كانوا بلا عائلات، أو أن عائلاتهم لم تكن راغبة فى ايوائهم. وزاد خوفها من المستقبل.

وعندما خطت جولى خارج بيت التمريض رفعت ياقة معطفها حول رقبتها لتحمى نفسها من برد الرياح الشمالية، وأحست بصوت الجليد يتشقق أسفل حذائها بينما كانت ذرات الثلج المتناثرة فى الهواء تنبيء بمزيد من الجليد قبل أن يحل الصباح. وربتت بيدها على لوحة أجهزة القياس التابلوه فى السيارتها الفولكس واغن بحب واعزاز عندما دار المحرك مع أول حركة من المفتاح. وكانت تحمد الله لقرب مسكنها من العمل فى مثل تلك الأجواء السيئة. وبدأت أفكارها تشرد عائدة من جديد الى لويزيانا، والى ستيف، كعادتها عندما تتحرر من واجبات العمل. وكم تمنت أن يفعل الزمن فعله فيطفيء تلك الذكريات ولكن لم يفعل. كان يكفيها أن تغمض عينيها لتحس من جديد بذراعى ستيف حولها. وعند ذاك فان نبضها السريع فى دقاته، وقلبها المتألم فى خفقاء، يسخران من أمانيها لسخية فى أن تنسى.

وأوقفت السيارة أمام الشقة الكائنة فى الدور الأرضى. واصطنعت فى حزم ابتسامة على وجهها قبل أن تعدو الى المبنى. كانت هذه لعبة تعودت أن تلعبها لترفع من روحها المعنوية المنهارة وربما عادت اليها جذوتها الطبيعية فى يوم من الايام، وكان ذلك ماأوحى اليها به تفكيرها. وصاحت فى مرح وهى تغلق

باب الشقة خلفها وتقفله بالمفتاح قبل أن تخلع معطفها وتعلقه على المشجب فى الصالة: « أنا فقط.. أعتقد أن الجو سيكون فى الخارج عاصفا الليلة.»

وأخذت تدلك ذراعيها بقوة لتؤكد ما قالته وهى تخطو من الردهة الصغيرة الى حجرة المعيشة. كانت خالتها تجلس على كرسيها المفضل بجانب الباب مباشرة وعيناها البنيتان تلمعان فى عبث باتجاه جولى:

« هذا هو وقت عودتك تقريبا. هناك زائر ينتظرك.»

كانت حجرة المعيشة تمتد على يمين جولى. وتتبعت عيناها المتسائلتان نظرة خالتها التى تحدق فى ذلك الاتجاه. وكان ستيف يقف قرب مائدة صغيرة يحمل فى يده منظرا من مناظر عيد الميلاد حصل عليه اخيرا. كان يرتدى كنزة لها حواش بيضاء فوق بنطلون من الجلد بنى اللون. ولكن عينى جولى انجذبتا الى عينيه الزرقاوين، وأسرتا الى أعماقها. وشحب لون وجهها. لقد كان ستيف أكثر وسامة مما تصورته. وسألته فى خشونة وهى لاتدرى أن خالتها قد خرجت فى هدوء من الحجرة.

« ماذا تفعل هنا؟»

وأجاب ستيف فى هدوء بصوته المتهدج بعدما خطا خطوة نحوها:

« لقد جئت لأراك.»

« أخرج من هنا..لا أريد أن أراك.»

وامتدت يدها الى حلقها لتخنق العبرات الواضحة. وواصل فى تصميم قائلا:

« لدى ما أريد أن أقوله لك.»

واستدارت فى سرعة وهى تقول: « لا أريد أن أسمع.»

وكانت على وشك أن تهرب الى حجرتها لولا أن يديه أوقفتاها وأطبقتا على كتفيها. ووجدت نفسها عاجزة عن مقاومة رغبتها فى أن تذوب بين ذراعيه. وتمتم فى أذنها: « سأقول وليكن ما يكن.»

كان العطر المنبعث منها يمتزج مع عطره المخدر وأضاف:

« واذا أصررت على أن أخرج بعد أن أقولها.. فسوف أخرج.»

وأغلقت جولى عينيها باحكام، وهى لاتحتمل اقترابها منها:

« أرجوك ياستيف.. دعنى أذهب. لم يعد للكلام معنى بعد الآن.»

« حتى ولو قلت إننى أحبك.»

ووجدت نفسها تلتصق بصدره وأحست فى عناق قاس تناول شعرها وتابع:

« لم يكن فى نيتى على الاطلاق أن أقع فى حبك بل يعلم اله أننى حاولت أن أتجنب هذا الحب بل حاولت أن أنساك. ولكن صورتك كانت تطاردنى حتى قبل أن تتركى لويزيانا. وكل ما قلته عن عدم الزواج وعدم الايمان بالحب كنت أحدث به نفسى. لقد كنت رجلا كثير الاحتجاج.»

وغمرتها أمواج من النشوة ولكنها رفضت أن تستسلم لها. لقد جربت مثل ذلك كثيرا فى الشهور الأخيرة، وعاشت ذكريات عديدة مؤلمة. حتى عندما كان قلبها يحبه كان عقلها يقاوم ذلك بشدة. وسألته:

« حتى عندما أخذت كلودين معك الى نيوأورليانز؟»

واحتواها ستيف بذراعيه بحيث يتسنى له أن ينظر الى وجهها وقال: « كنت أعرف أنك اعتقدت أننى فعلت ذلك، وربما حرصت أنا على أن تعلمى به. لقد طلبتنى وطلبت منى أن آخذها معى. ولكننى أقسم لك أن كلا منا كن يقيم فى فندق مستقل. وأما ذلك القميص الملون الذى تحدثت عنه فقد أخذته من أحد محلات التنظيف يوم بارحنا نيوأورليانز وتركته فى السيارة.»

« لماذا لم تقل لى ذلك.»

« كنت على استعداد لسوء التفسير، وكنت تريدين أن تجعلينى أصدق أنى مجرد خيال عابر فى حياتك. غرام على ظهر سفينة.»

واعترفت جولى فى شىء من الحياء:

« لم يكن أبدا كذلك.»

وألح عليها وقد عادت الضراوة الى عينيه:

« هل أنت متأكدة ياجولى؟ متأكدة تماما؟! لأن هذه الاشهر الأخيرة التى قضيتها من دونك كانت جحيما بالنسبة الى.»

والتفت ذراعاها حول عنقه وجذبت رأسه تجاهها. كان شعورها هو شعور من يعود الى وطنه بعد غياب طويل. ولم يعد هناك مكان للكلام. وجاء صوت الخالة بريجيت من الخارج يقول:

« هل أترك لكما بضع دقائق أم أدخل على الفور؟»

ورد ستيف:

« أدخلى أن ابنة شقيقتك تتصرف فى شىء من البهجة. أعتقد أنها فى حاجة شديدة الى رقيبة.»

وعلقت الخالة بريجيت فى شىء من الرضى والسعادة قائلة:

« الأفضل أن تقول انها بحاجة الى وصيفة شرف.»

وعانق ستيف جولى وهو يقول:

« فكرى فى هذا الأمر ايتها العصفورة الصغيرة.»

وأضاف:

« سواء قلت لك ذلك من قبل أم لم أقله، فسوف نتزوج فور حصولنا على ترخيص وايجاد كاهن يتم اجراءات الزواج. ان كاميرون هول بحاجة الى جولى انطوانيت كاميرون أخرى لتكون سيدة القصر. كم أن سيد القصر أيضا بحاجة اليها.»

وحدقت جولى بحب كبير فى وجهه، وقالت: « لقد كان ذلك عرض زواج فى وجود شاهد ياسيد كاميرون وأمام الشاهد نفسه أعلن قبولى.»

وابتسمت خالتها وقالت: « لأعتقد أن ستيف كان ينوى أن يترك لك فرصة للاختيار. ليس لدى ماأقدمه فى هذه المناسبة الاشراب الكاكاو.»

وعلقت جولى:

« هل أقدم المساعدة؟»

ورفضت خالتها ذلك بحزم.

وقال ستيف موجها الكلام الى خالتها، وهو يضع ذراعه حول جولى ويجذبها نحوه:

« قبل أن أنسى لقد أخبرتنى جولى أنك المسؤولة عن تمكنها من القيام بالرحلة الى لويزيانا. وأريد أن أقدم لك الشكر على ذلك من كلينا. واذا لم يكن لدى جولى اعتراض فسوف نسمى ابنتنا الأولى باسمك.»

ولمعت عينا المرأة العجوز بالدموع وقالت:

« هذا فقط اذا كنت سأحضر حفل تعميدها.»

وعلقت جولى: « لنعتبر أن هذا قد تم.»

وتركت خالتها الغرفة على عجل وهى تقول:

« حسنا..من الأفضل أن أسرع بتحضير الكاكاو.»

وحدق ستيف اليها بشعور دافىء يكاد لايصدق وقال:

«هل ضايقك هذا؟»

وغطت وجنتيها حمرة الخجل، وهى تقول: « لقد كان شيئا رائعا. ومع ذلك يمكن أن يكون لنا أولاد كذلك.»

« سنظل نحاول حتى نحصل على ما نريد. وفى هذه اللحظة لا يهمنى أن يكون لى طفلان أو عشرة أطفال أو حتى عشرون طفلا. أن كل ما أريده هو أنت. أما أى شىء آخر فيكون بمثابة منحة، ولو أننى أعتقد أن ولدا واحدا وبنتا واحدة شىء عظيم.»

قالت لاهثة وهى تحدق فى وجهه تخشى ألا تراه ثانية:

«أوه ياستيف.. أننى أحبك كثيرا.»

كانت تلك دعوة لم يستطع أن يقاومها، بل لم تستطع جولى أن تقاوم وهى تقدم نفسها اليه. وهمس هو الآخر قائلا:« وأنا أحبك.»

تمت